

لا تعد . وأما القرث^(١) والبر فحطب إذا جفف عجيب .

ثم قالت : بقی الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله - عز وجل - لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشره ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لن أقع على علم ذلك - حتى يوضع موضع الانتفاع به - صاركية^(٢) في قلبي ، وقذى^(٣) في عيني ، وهما لا يزال يعاودني . فلم ألبث أن رأيتها قد تطلقت^(٤) وتيسمت ، فقلت : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم . قالت : أجل ! ذكرت أن عندي قدور ! شامية جددا . وقد زعموا : أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطبخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شيء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت بأبي أنت ! لم يجيء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والآلية والجنوب والعظم المعرق وغير ذلك معاش ! ولكل شيء إبان .

فقبض صاحب الحمار^(٥) والماء العذب قبضة من حصي ، ثم ضرب بها الأرض^(٦) ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع بأخبار الصالحين !

* قصة زبيدة بن حميد :

وأما زبيدة بن حميد الصيرفي ، فإنه استلف من يقال كان على باب داره درهمن وقيراطا ، فلما قضاه^(٧) بعد ستة أشهر ، قضاه درهمن وثلاث حبات شعير^(٨) . فاغتاظ البقال ، فقال : سبحان الله ! أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا بقال لا أملك مائة فلس ، وإنما أعيش بكدي وباستفضال^(٩) الحبة والحبطين . صاح على بابك حمال والمال لم يحضرك ، وغاب وكيلك ، فنقدت^(١٠) عنك درهمن وأربع شعيرات ، فقضيتي بعد ستة أشهر درهمن وثلاث شعيرات ؟ فقال زبيدة : يا مجنون ! أسلفتني في الصيف ، فقضيتك في الشتاء ، وثلاث شعيرات شتوية ندية

(١) ما في الكرش .

(٤) انشرفت .

(٢) من الكي .

(٥) الذي سبقت حكايته .

(٣) ما يدخل العين من تراب ونحوه .

(٦) تعبير عن أعجابه .

(*) إلى هنا تنتهي قصة أهل البصرة من المسجدين . وهي القصة الثالثة في كتاب الجلاء بعد المقدمة المطولة والتي جعل عنوانها رب أنعمت فزد .

(٩) بإدخال .

(٧) دفع له ما عليه .

(١٠) أي فاعطيت الحال .

(٨) أي مقدار وزنها من الفضة .

آرزن^(١) من أربع شعيرات يابسة صيفية ، وما أشك أن معك فضلاً

وحدثني أبو الأصبع بن ربيعي قال :

دخلت عليه^(٢) بعد أن ضرب غلماه بيوم ، فقلت له : ما هذا الضرب المبرح ، وهذا الخلق السيء ؟ هؤلاء غلمان ، ولهم حرمة وكفاية وتربية ، وإنما هو ولد^(٣) ، هؤلاء كانوا إلى غير هذا أحوج ! قال : إنك لست تدري أنهم أكلوا كل جوارشن^(٤) كان عندي .

قال أبو الأصبع : فخرجت إلى رئيس غلماه فقلت : وبلك ! مالك وللجوارشن ، وما رغبتك فيه ؟ قال : جعلت فداك ! ما أقدر أن أكلمك من الجوع إلا وأنا متكئ ، الجوارشن ، ما أصنع به ! هو نفسه ليس يشبع ، ولا نحتاج إلى الجوارشن ، ونحن الذين إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس - ما نصنع بالجوارشن ؟

واشدد على غلماه في تصفية الماء ، وفي تبريده وتزيميله^(٥) لأصحابه وزواره ، فقال له غازي أبو مجاهد : جعلت فداك ! مر بتزيميل الخبز وتكثيره ، فإن الطعام قبل الشراب .

وقال مرة : يا غلام ! هات خوان الزرد^(٦) - وهو يريد تحت الزرد - فقال له غازي : نحن إلى خوان الخبز أحوج .

وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقاً له قيصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات^(٧) ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فضى من ساعته إلى منزله ، فجعله برنكناً^(٨) لامرأته . فلما أصبح ، سأل عن القميص وتفقدته فقيل له : إنك قد كسوته فلانا . فبعث إليه . ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراؤه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ! وبعد فإني أكره ألا يكون لي حمد ، وأن يوجه الناس هذا مني من السكر ، فرده على حتى أهبه لك صاحبا عن طيب نفس ، فإني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلا ، فلما رآه قد صمم ، أقبل عليه فقال : يا هناء^(٩) إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : إني والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جيبته^(١٠) لامرأتي ، وقد زدت في الكمين ، وحذفت المقاديم^(١١) ، فإن أردت بعد هذا كله أن

(٧) ما يبدو له من الرجوع بعد أن يصحو من السكر .

(٨) نوع من الثياب .

(٩) يا رجل .

(١٠) جعلت له جيئاً ، والحجب ما يفتح على الصدر .

(١١) مقاديم القميص : ما يبدو منه أولاً .

(١) أنقل .

(٢) على زبيدة بعد أن ضرب غلماه بيوم واحد .

(٣) بمنزلة أولادك .

(٤) دواء للهضم .

(٥) لف إنائه بشيء مبلول ليرد

(٦) المقصود صندوق الزرد .

تأخذه فخذة . قال : نعم ! آخذه لأنه يصلح لأمرأتى كما يصلح لأمرأتك . قال : فإنه عند الصباغ ، قال : فهاته ! قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع قال : بأبى وأمى رسول الله ﷺ حيث يقول : « جمع الشركه في بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر ! » .

* ليلي الناعطية :

وأما ليلي الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ^(١) ، فإنها مازالت ترقع قيصًا لها وتلبسه ، حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص الأول . ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس إلا الرفو ، وذهب جميع الكساء . وسمعت قول الشاعر :

السب فيمك ما اهتديت لجيبه
فإذا أضلك جيبه ^(٢) فاستبدل

فقلت : إني أذن لخرقاء ^(٣) ! أنا - والله - أحوص ^(٤) الفتق وفتق الفتق ، وأرقع الخرق وخرق الخرق .

* عن وليد القرشي :

ومضيت أنا وأبو إسحاق النظام وعمرو بن نهوى ، نريد الحديث في الجبان ^(٥) لتناظر في شيء من الكلام . فررنا بمجلس وليد القرشي - وكان على طريقنا - فلما رأنا تمشى معنا ، فلما جاووزنا الخندق ^(٦) جلسنا في فناء حائطه ، وله ظل شديد السواد بارد ناعم ، وذلك لثخن الساتر ^(٧) ، واكتناز الأجزاء ولبعد مسقط الشمس من أصل حائطه ، فطال بنا الحديث ، فخرجنا في ضروب من الكلام ، فما شعرنا إلا والنهار قد انتصف ونحن في يوم قانظ ، فلما صرنا في الرجوع ، ووجدت مس الشمس ووقعها على الرأس أيقنت بالبرسام ^(٨) ، فقلت لأبى إسحاق - والوليد إلى جنبى يسمع كلامى - : الباطنة ^(٩) منابعدة ، وهذا يوم منكر ، ونحن في ساعة تذيب كل شيء ، والرأى أن نميل إلى منزل الوليد ، فنقيل فيه ونأكل ما حضر ، فإنه يوم تخفيف ^(١٠) ،

(١) فرقة من الشيعة تسمى الغالية أى للشددة .

(٢) أى لم تهتد إلى الجيب لادخال رأسك فيه . وذلك لكثرة الخروق من حوله .

(٣) غير موقفة .

(٤) لسبك حائط

(٥) ضربة الشمس .

(٦) مكان في المدينة .

(٧) المحفور حول سور المدينة .

(٨) تخفيف الأكل لشدة الحر .

(٩) المحفور حول سور المدينة .

فإذا أردنا^(١) تفرقتنا ، وإلا فهو الموت ليس دونه شيء . قال الوليد رافعاً صوته : أما على هذا الوجه فلا يكون والله أبداً ، فضعه في سويداء قلبك^(٢) ! فقلت له : ما هذا الوجه حتى أنكرته علينا رحمك الله ، هل ههنا إلا الحاجة والضرورة ؟ قال : إنك أخرجته مخرج الهزء قلت : وكيف أخرجته مخرج الهزء وحياتي في يدك ، مع معرفتي بك ؟ فغضب وتريده من أيدينا ، وفارقنا . ولا والله ما اعتذر إلينا مما ركبنا به^(٣) إلى الساعة .

* ما كان من أبي مازن :

ولم أر من يجعل الأسى حجة في المنع^(٤) إلا هو ، وإلا ما كان من أبي مازن إلى جبل الغمر^(٥) .

وكان جبل قد خرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف الطائف^(٦) ، ولم يأمن من المستقفي^(٧) ، فقال : لو دقت الباب على أبي مازن ، فبت عنده في أدنى بيت ، أو في دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنق شيئاً ، حتى إذا تصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين^(٨) . فدق عليه الباب دق واثق ، ودق مدل^(٩) ودق من يخاف أن يدركه الطائف ، أو يقفوه المستقفي ، وفي قلبه عز الكفاية^(١٠) ، والثقة باسقاط المؤنة ، فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعاً ، فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت ! فلما رآه جبلاً واجماً لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت معرفة الطائف^(١١) ، وعجلة المستقفي ، فلت إليك لأبيت عندك ، فتساكر^(١٢) أبو مازن وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر ، فخلع جوارحه^(١٣) وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران ! قال له جبل : كن كيف شئت ، نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح^(١٤) فأغم عيالك بالحر ، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرني بالدار ، وأنا كما ترى ثمل من الشراب ، شعبان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس دخلاً ، وإنما أريد أن تدعني أغفى في دهليزك أغفأة واحدة ، ثم أقوم في أوائل المبكرين ، قال أبو مازن - وأرخص عينيه وفكيه ولسانه - ثم قال : سكران والله ،

(٢) أى ضع هذا الكلام في صميم قلبك وافهمه .

(١) صرنا في جو بارد .

(٣) أساء به إلينا .

(٤) أى يجعل ما نقاسيه من الحر سبباً لمنعنا من القبولة عنده .

(٥) اسم رجل .

(٦) الذى يطوف بالمدينة ليلاً بأمر الحاكم ليضقد أحوالها . (١١) أساءته .

(٧) من يقفو الأثر للسلب . (١٢) تظاهر بالسكر .

(٨) الساترون آخر الليل . (١٣) أعضائه .

(٩) أى دق واثق من منزله عند من يدق عليه . (١٤) أنام فيه لشدة الحر .

(١٥) الاستثناء .

أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا . والله إن^(١) أفهم ما تقول . ثم أغلق الباب في وجهه . ودخل لايشك أن غدره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر^(٢) حتى وقع على هذه الحيلة . وإن وجدت في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك لأن الأعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء . كسهل بن هارون وأشباهه^(٣) .

* قصة أحمد بن خلف اليزيدي :

ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدي . ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي درهم وستائة ألف درهم ، وأربعين ومائة ألف دينار . فاقسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه ، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم . وسبعين ألف دينار ، ذهباً عينا^(٤) مثاقيل وزانة^(٥) جياذ ، سوى العروض^(٦) .

فقلت له - وقد ورث هذا المال كله - ما أبطأ بك الليلة ؟ قال : لا والله ! إلا أني تعشيت البارحة في البيت . فقلت لأصحابنا لولا أنه بعيد العهد بالأكل في بيته - وأن ذلك غريب منه - لما احتاج إلى هذا الاستثناء . وإلى هذه الشريطة^(٧) . وأين يتعشى الناس إلا في منازلهم ؟ إنما يقول الرجل عند هذه المسألة : لا والله إلا أن فلاناً حبسني . ولا والله إلا أن فلاناً عزم على ! فأما ما يستثنى ويشترط ، فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل .

دهليزه ، ولم أزمه من مؤثني شيئاً ، حتى إذا تصدع عمود الصبح خرجت في أوائل يومى إلى مبتدئاً مرة من غير مشورة وعن غير سبب جرى : أنظر ! أن تتخذ لعيالك في الشتاء من هذه المثلثة^(٨) فإنها عظيمة البركة ، كثير التزل^(٩) . وهى تنوب عن الغداء ، ولها نفحة تغنى عن العشاء ، وكل شيء من الأحساء^(١٠) فهو يغنى عن طلب النييذ . وشرب الماء ، ومن تحسى الحار عرق ، والعرق يبيض الجلد ، ويخرج من الجوف . وهى تملأ النفس ، وتمنع من التشهى ، وهى أيضاً تدفىء ، فتقوم لك في أجوافهم مقام فحم الكانون من خارج . وحسو الحار يغنى عن الوقود وعن لبس الحشو . والوقود يسود كل شيء ويتنه ، وهو سريع في الهضم^(١١) ، وصاحبه معرض

(١) أن : ما . (٢) أنعم النظر .

(٣) هذا يشبه ما يقال به في عصرنا من ملاءمة الحوار في القصص الواقعي . وبالطبع هذا الكلام من الحافظ

(٤) مقبوضة . (٥) آخذة حقها من الوزن .

(٦) جمع حماة (شوية) . (٧) البركة .

(٨) الأمتعة التي ليست عقاراً ولا توزن ولا تكال . (٩) جمع حماة (شوية) .

(١٠) أى أن الوقود سريع التفتت كما يفهم الطعام . (١١) الشرط .

للحريق ، ويذهب في ثمنه المال العظيم ، وشرشىء فيه أن من تعوده لم يدفعه شىء سواه . فعليك يا أبا عثمان بالثلثة ، وأعلم أنها لا تكون في منازل المشيخة ، وأصحاب التجربة ، فخذها من حكيم مجرب ، ومن ناصح مشفق .

وكان لا يفارق منازل إخوانه . وإخوانه محاصيب^(١) مناويب أصحاب نفع^(٢) وترف . وكانوا يتحفونه ويدللونه ويفكهونه^(٣) ويحكمونه^(٤) ، ولم يشكوا أنه سيدعوهم مرة ، وأن يجعلوا بيته نزهة ونشوة ، فلما طال تغافله . وطالت مدافعتة ، وعرضوا له بذلك فتغافل ، صرحوا له ، فلما امتنع قالوا : اجعلها دعوة ليس لها أخت ! فلما بلغ منه ومنهم المجهود . اتخذهم طعيماً خفيفاً شهياً مليحاً ، لا ثمن له ، ولا مؤنة فيه ، فلما أكلوا وغسلوا أيديهم ، أقبل عليهم فقال : أسألكم بالله الذى لا شىء أعظم منه : أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟ قالوا : ما نشك أنك - حين كنت والطعام فى ملكك - أغنى وأيسر ! قال : فإنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب من الفقر ! قال : فمن يلومنى على ترك دعوة قوم قربونى إلى الفقر ، وباعدونى من الغنى . وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ، ومن الغنى أبعد ؟ .

وفى قياسه هذا أن من رأيه أن يهجر كل من استسقاها شربة ماء ، أو تنازل من حائطه لبنه ومن خليط دابته^(٥) عوداً .

ومر بأصحاب الجداء^(٦) وذلك فى زمان التوليد^(٧) ، فأطمعه الزمان فى الرخص ، وتحركت شهوته^(٨) على قدر إمكانه عنده^(٩) ، فبعث غلاماً له يقال له ثقف - وهو معروف - ليشتري له جدياً ، فوقف غير بعيد ، فلم يلبث أن رجع الغلام يحضر^(١٠) ، وهو يشير بيده ويومئ برأسه ، أن : اذهب ولا ثقف . فلم يبرح ، فلما دنا منه قال : ويلك ! تهربنى كأنى مطلوب^(١١) ! قال : هذا أطرف^(١٢) . الجدى بعشرة ، أنت من ذى البائة^(١٣) ؟ مر الآن ! مر ! مر !

فاذا غلامه يرى أن من المنكر أن يشتري جدى بعشرة دراهم ! والجدى بعشرة إنما ينكر عندنا

-
- (١) غيرهم كثير .
(٢) يتناولون الطعام ، أى على كل واحد نوبة .
(٣) عطاء .
(٤) يطرفونه بالملح والنواذر .
(٥) يجعلون له الحكم فيما يشئى .
(٦) كان الحاكم يطلبنى .
(٧) كان الغلام يقول له : عدم فهمك للإشارة ما فى الموضوع .
(٨) البائة : الوجه والناحية ، يعنى : هل أنت من النوع الذى يشتري بهذا الفن ؟

بالبصرة . لكثرة الخير ، ورخص السعر ، فأما في العسكرة (١) . فإن أنكرك ذلك منكر ، فإنما ينكره من طريق رخصه ، وقلة ثمنه ، لا لغير ذلك .

ولا تقولوا الآن : قد والله أساء أبو عثمان (٢) الى صديقه (٣) بل ما تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه (٤) ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه ، فعير مأمون على جلسيه ، وأى الرجال المهذب ؟ هذا والله الشيع (٥) والتبوع (٦) والبذاء ، وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم أتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته وطلب رضاه ومحبه (٧) ، ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكمينا من كمنائه . وذلك أن أحب الأصحاب إليه ، أبلغهم قولاً في إياس الناس مما قبله (٨) وأجودهم حسماً لاسباب الطمع في ماله . على أنى إن أحسنت يجهدى ، فسيجعل شكرى موقوفاً ، فإن جاوز كتابى هذا حدود العراق شكر ، وإلا أمسك ، لأن شهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الإقليم ، قد أغناه عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيف ، وهو يرى أن سهل بن هارون وإسماعيل بن غزوان ، كانا من المسرفين ؟ وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر ؟ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم بالنفقة ولا يقول العيال : هات ! لعرقم حالهم ومترلتهم .

وحدثنى صاحب لى قال :

* حكاية فلان بن فلان :

دخلت على فلان بن فلان ، وإذا المائدة موضوعة بعد ، وإذا القوم قد أكلوا ورفعوا أيديهم ، فمدت يدى لآكل فقال : أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للأصحاء ! يقول : أعرض للدجاجة التى قد نيل منها . وللفرخ المتزوع الفخذ ، فأما الصحيح فلا تعرض له ! وكذلك الرغيف الذى قد نيل منه ، وأصابه بعض المرق ! .

وقال لى هذا الرجل : أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبنى له يحيى ويذهب ، فاختلف (٩) مراراً ، كل ذلك يرانا نأكل ، فقال الصبي : كم تأكلون ؟ لا أطمع الله بطونكم ! فقال أبوه - وهو جد الصبي - ابنى ورب الكعبة !

(١) البلاد الكبيرة المردحمة بالسكان مثل بغداد

(٣) أحمد بن خلف .

(٢) الجاحظ .

(٤) لأنه صديقه ، ومن يدم صديقه كأنما يدم نفسه .

(٥) الأحرار : يعنى أن هذه الأحاديث تحرق المتحدث عنه .

(٦) أى يجعلهم يأسون مما عنده .

(٧) من تبع الشيء أى استقصاه .

(٨) الاختلاف إلى الشيء : التردد عليه .

(٩) لأنه يجب أن يشاع عنه ذلك .

* صاحب مسلحة الكرخ :

وحدثني صاحب مسلحة باب الكرخ^(١) قال :

قال لي صاحب الحمام : ألا أعجبك^(٢) من صالح بن عفان ؟ كان يجيء كل سحر ، فيدخل الحمام ، فإذا غبت عن إجانة النورة^(٣) مسح أرفاغه^(٤) ، ثم يتستر بالمتزر ، ثم يقوم فيغسله في غمار الناس ، ثم يجيء بعد في مثل تلك الساعة ، فيطلى ساقيه وبعض فخذه ، ثم يجلس ويتزر بالمتزر ، فإذا وجد غفلة غسله ، ثم يعود في مثل هذا الوقت فيمسح قطعة أخرى من جسده ، فلا يزال يطلى في كل سحر حتى ذهب مني بطلية ! قال : ولقد رأيتك وإن في زيق سرويله^(٥) نورة .

وكان لا يرى الطبخ في القدور الشامية ، ولا تبريد الماء في الجرار المذارية^(٦) ، لأن هذه ترشح ، وتلك تنشف !

* أبو الجهجاه يتحدث :

حدثني أبو الجهجاه النوشرواني قال :

حدثني أبو الأحوص الشاعر قال : كنا نفطر عند الباسياني^(٧) ، فكان يرفع يديه قبلنا ، ويستلق على فراشه ويقول : ﴿ إنما نطمعكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾^(٨)

* حديث خالد بن يزيد :

وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة^(٩) . هو خالوية المكدي^(١٠) . وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد . وكان ينزل في شق^(١١) بني تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل ، وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلساً - وفلوس البصرة كبار - فغلط بدرهم بغلي^(١٢) ، فلم يفتن حتى وضعه في يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلوس ! فقيل له : هذا لا نظنه يحل وهو بعد قبيح ، قال قبيح عند

(١) المسلحة : جماعة مسلحون في مكان للحراسة ، وباب الكرخ : حى من أحياء بغداد ويبدو أنه ضابط كبير .

(٢) أجملك تعجب منه .

(٣) الإجانة : الوعاء ، والنورة : مادة ينزع بها الشعر .

(٤) باطن الأبط والفخذ .

(٥) الزيق ما يحيط بالسروايل من اعلاها .

(٦) نسبة إلى بلد يسمى (منار) .

(٧) سورة الإنسان : ٩ .

(٨) المهالبة : بنو المهلب بن أبي صفرة ، ومولاهم : المنتسب إليهم .

(٩) المستجدي . (١٠) ناحية . (١١) نوع من الدراهم .

من ؟ إني لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم . ليس هذا من مساكين الدراهم ، هذا من مساكين الفلوس ! والله ما أعرفه إلا بالفراصة ! قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم ! لم يبق في الأرض مخطراتي^(١) ولا مستعرض الأفقية ، ولا شحاذ ، ولا كاغانى ، ولا بانوان ، ولا قرسى ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا مزيدى ، ولا أسطيل إلا وقد كان تحت يدي . ولقد أكلت الزكورى ثلاثين سنة ، ولم يبق في الأرض كعبي ، ولا مكد إلا وقد أخذت العرافة^(٢) عليه . وإنما أزداد بهذا أن يؤيسهم من ماله حين عرف حرصهم وجشعهم ، وسوء جوارهم . وكان قاصًا متكلمًا بليغًا داهيًا . وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائنى القاصان من غلمانه .

* وهو الذى قال لابنه عند موته :

إني قد تركت لك ما تأكله إن حفظته ، وما لا تأكله إن ضيعته ، ولما ورثت^(٣) من العرف^(٤) الصالح ، وأشهدتك من صواب التدبير ، وعودتك من عيش المقتصدین ، خير لك من هذا المال . وقد دفعت إليك آله^(٥) لحفظ المال ، عليك بكل حيلة . ثم إن لم يكن لك معين من نفسك ، ما انتفعت بشيء من ذلك ، بل يعود لك النهى كله إغراء لك^(٦) وذلك المنع تهجينًا لطاعتك^(٧) قد بلغت في البر منقطع التراب ، وفي البحر أقصى مبلغ السفن ، فلا عليك ألا ترى ذا القرنين^(٨) ، ودع عنك مذاهب ابن شرية^(٩) فإنه لا يعرف إلا ظاهر الخبر ، ولو رآنى تميم الدارى^(١٠) لأخذ عنى صفة الروم . ولأنا أهدى من القطا^(١١) ، ومن دعيميص^(١٢) ومن رافع الخش ، إني قد بت بالفقر مع الغول^(١٣) ، وتزوجت السعلاة^(١٤) ، وجاوبت الهاتف^(١٥) ، ورغت^(١٦) عن الجن إلى الجن^(١٧) واصطلدت الشق^(١٨) وجاوبت النسناس^(١٩)

(١) هذا للفظ وما بعده فسرّه الجاحظ فيما بعد .

(٢) الرياسة .

(٣) والذى ورثتك إياه .

(٤) الوفق والإحسان .

(٥) المراد بالأله ما علمه إياه .

(٦) يعنى أنك إذا لم تكن راغبًا فيما نصحتك به فإن النهى يفريك ويحضك على النهى عنه .

(٧) التهجين : التقييح ، يعنى أنك لو أضمت بغير اقتناع كان ذلك مشينًا لطاعتك .

(٨) أى فلا بأس عليك ألا ترى ذا القرنين . إذ يكفيك ما أطلعتك عليه .

(٩) يرى هذا الرجل أن الذهب والفضة حجوان إن أخرجتها نقدًا . وإن تركتها لن يزيدا .

(١٠) كان عارقًا ببلاد الروم .

(١١) الذى يسمع صوته ولا يرى .

(١٢) نوع من الحمام ينتدى إلى الماء من بعيد .

(١٣) اسم رجل كان دليلًا ماهرًا ومثله المذكور بعده .

(١٤) حيوان خرافى .

(١٥) تعرف بأنها من نساء الجن .

(١٦) نوع من الجن وقيل خلق بين الجن والإنس .

(١٧) حيوان خرافى على هيئة نصف الإنسان .

(١٨) أختلف في حقيقته . وما قيل أنه دابة كالوحش .

وصحبنى الرئي^(١) وعرفت خدع الكاهن ، وتدسيس العراف^(٢) والأم يذهب الخطاط^(٣) والعياف^(٤) وما يقول أصحاب الأكتاف^(٥) وعرفت التنجيم والزجر^(٦) ، والطرق^(٧) والفكر^(٨)

إن هذا المال لم أجمعه من القصص والتكديّة ، ومن احتيال النهار ومكابدة الليل ، ولا يجمع مثله أبداً إلا من معاناة ركوب البحر ، أو من عمل السلطان ، أو من كيمياء الذهب والفضة . وقد عرفت الرأس^(٩) حق معرفته ، وفهمت كسر الأكسير^(١٠) على حقيقته ، ولولا علمي بضيق صدرك ، ولولا أن أكون سبباً لتلف نفسك لعلمتك الساعة الشيء الذي بلغ بقارون^(١١) ، وبه تبنكت^(١٢) خاتون^(١٣) ، والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديق ، فكيف مالا يحتمله عزم ، ولا يتسع له صدر ! وحرز^(١٤) سر الحديث ، وحبس كنوز الجواهر ، أهون من خزن العلم . ولو كنت عندي مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد ، وأنت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف ولا تحقه^(١٥) بالذكر ، ولكنني سألتك عليك علم الإدراك . وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء^(١٦) ، وأسرار السيوف القلعية^(١٧) وعقاقير السيوف اليمانية^(١٨) ، وعمل الفرعوني^(١٩) وصنعة التلطيف^(٢٠) على وجهه ، إن أقامني الله من صرعتي^(٢١) هذه ولست أرضاك^(٢٢) . وإن كنت فوق البنين ، ولا أتق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء ، لأنني لم أبالغ في محبتك . إني قد لا بست السلاطين والمساكين ، وخدمت الخلفاء والمكدين ، وخالطت النساك والفتاك ، وعمرت السجون^(٢٣) كما عمرت مجالس الذكر ، وحلبت الدهر أشطره^(٢٤) ، وصادفت دهرًا كثير الأعاجيب ، فلولا أني دخلت من كل باب ، وجريت مع كل ربح ، وعرفت السراء والضراء . حتى مثلت لي التجارب عواقب الأمور ، وقربتني من غوامض التدبير لما أمكنتني جمع ما أخلفه لك ، ولا حفظ ما حبسته عليك ، ولم أحمد نفسي على جمعه ، كما

- | | |
|---|--|
| (١) جنى يألف الإنسان ويعلمه أشياء مثل الكهانة . | (١٤) حفظ . |
| (٢) حيلة ومكر . | (١٥) ولا تتحققه . |
| (٣) في الرمل . | (١٦) حرز ذو ألوان يوضع في الحيطان . |
| (٤) من يتفاهل بالطير . | (١٧) منسوبة إلى القلعة وهو موضع بالبادية . |
| (٥) الذين ينظرون في كحف الإنسان كما ينظر قاريء الكف في الكف . | (١٨) أدوية تضاف إلى معدن السيوف . |
| (٦) زجر الطير والتطير منه . | (١٩) نوع من الزجاج . |
| (٧) مثل الضرب بالودع . | (٢٠) النقش . |
| (٨) الحدسي . | (٢١) مرضي . |
| (٩) ، (١٠) من مصطلحات المشتغلين بعلم الكيمياء القديمة . | (٢٢) أي لسرى . |
| (١١) أوصله إلى الغنى . | (٢٣) ألفت فيها . |
| (١٢) تمكنت . | (٢٤) الشطر هنا : الضرع . يعني انه غير الأمور تشبيهاً بجلب الناقة . |
| (١٣) ملكة تجارى . | |

حمدتها على حفظه ، لأن بعض هذا المال لم أنهل بالحزم والكيس ^(١) . قد حفظته عليك من فتنة الرياء ومن أيدي الوكلاء . فإنيهم الداء العياء .

ولست أوصيك بحفظه لفضل حيي لك ، ولكن لفضل بغضي للقاضي ! إن الله - جل ذكره - لم يسلط القضاة على أموال الأولاد إلا عقوبة للأولاد . لأن أباه ^(٢) إن كان غنياً قادراً أحب أن يريه غناه وقدرته . وإن كان فقيراً عاجزاً أحب أن يستريح من شينه ، ومن حمل مؤنته ، وإن كان خارجاً من الحالين ^(٣) ، أحب أن يستريح من مداراته ^(٤) . فلا هم شكروا من جمع لهم وكفاهم ووقاهم وغرسهم ولا هم صبروا على من أوجب الله حقه عليهم ، والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة ، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة . فإن كنت منهم ^(٥) فالقاضي لك ^(٦) ، وإن لم تكن منهم فالله لك ^(٧) ، فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عنك ، وصرت الحافظ على غيرك ، وإن خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك وصار غيرك الحافظ عليك ، وإنك يوم تطمع أن تضيع مالك ، ويحفظه غيرك ، لجشع الطمع مخذول الأمل .

احتال الآباء في حبس الاموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار ^(٨) ما أسرعهم إلى إطلاق الحجر . وإلى إيناس الرشد إذا أرادوا الشراء منهم ، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم ^(٩)

يا ابن الخبيثة ! إنك إن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك ^(١٠) ، ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك ، وزاد في ذلك أن كنت بكرى ، وعجزة أمك ^(١١) . أنا لو ذهب مالي لجلست قاصاً ^(١٢) ، أو طفت في الآفاق - كما كنت - مكدياً ، للحية وافرّة بيضاء ، والخلق جهير طل ^(١٣) ، والسمت حسن ، والقبول على واقع . إن سألت عني الدمع أجابت ، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير ، وصرت محتالاً بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق ، أو صرت للقوم عينا ^(١٤) . ولهم مجهراً ! سل عني صعايلك الجبل ^(١٥) ؛

(١) الفطنة والذكاء .

(٢) أي الواحد من الأبناء .

(٣) متوسطاً .

(٤) أي يستريح الولد من ملاطفة أبيه ليأخذ منه .

(٥) من الأولاد الذين لا يرعون المال وحقوق الآباء .

(٦) عدو لك .

(٧) راع لك .

(٨) الحجر .

(٩) عطاء لمن يجهم القضاة .

(١٠) يعني أن مفديتك قد أفسدت نفسك بدل أن تصلحها .

(١١) آخر من ولدت (آخر العقود) .

(١٢) يكسب من القص .

(١٣) حسن .

(١٤) جاسوساً .

(١٥) لصوص الجبال .

وزواقيل^(١) الشام ، وزط الآجام^(٢) ، ورؤوس الأكراد ، ومردة الأعراب ، وهناك نهريط^(٣) .
 ولصوص القفص^(٤) وسل عنى القيقانية^(٥) والقطرية^(٦) ، وسل عنى المشبهة^(٧) وذباحي
 الجزيرة ، كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة . وكيف
 ثبات جناني عند رؤية الطليعة ، وكيف يقظتي إذا كنت ربيثة^(٨) وكيف كلامي عند السلطان إذا
 أخذت ، وكيف صبري إذا جلدت ، وكيف قلة ضجري إذا حبست ، وكيف رسفاني في القيد
 إذا أثقلت ! فكم من ديماس^(٩) قد نقبته ، وكم من مطبق^(١٠) أفضيته ، وكم من سجن قد
 كابدته .

لم تشهدني وكردوية إلا قطع أيام سندان^(١١) ، ولا شهدتني في فتنه سرنديب^(١٢) ولا رأيتني أيام
 المولتان^(١٣) . سل عنى الكثيفية والخليدية والحربية^(١٤) والبلاية وبقية أصحاب صخر ومصخر ،
 وبقية أصحاب فاس وراس ومقلاس^(١٥) ومن لقي أزهر أبا النقم . كان آخر من صادفتني حمدوية
 أبو الأرتال ، وأنا مجيب مردوية بن أبي فاطمة ، وأنا خلعت بنى هانيء ، وأنا أول من شرب
 الغربي^(١٦) حاراً والبيزيل^(١٧) بارداً وأول من شرب العرق بالكبر ، وجعل المنقع قرعة ، وأول من
 ضرب الشاهسرم^(١٨) على ورق القرع ، وأول من لعب باليرمع^(١٩) في البدو ، وأسقط الدف المربع
 من بين الدفاف ، وما كان النقاب إلا هداماً حتى نشأت ، وما كان الاستقفاء إلا استلاباً حتى
 بلغت .

- (١) جنس من السود .
- (٢) جمع أجمه : أى الشجر الملتف .
- (٣) بلدة بالأهواز .
- (٤) صنف من اللصوص كان معروفاً وقتذاك .
- (٥) القيقانية : نسبة إلى قيقان بلد من بلاد السند .
- (٦) نسبة إلى قطر .
- (٧) الأشرار المشبهون بأهل الصلاح .
- (٨) الربيثة : الذى يقف على مكان عال لينظر قومه لا يفاجئهم العدو .
- (٩) سجن .
- (١٠) سجن من تحت الأرض .
- (١١) مدينة ملاصقة لبلاد السند .
- (١٢) سرنديب : هى سيلان (سيرلانكا) .
- (١٣) بلد فى بلاد الهند وبها صنم يعظمونه .
- (١٤) الكثيفية والخليدية والحربية : فرق وطوائف .
- (١٥) مقلاس وصخر ومصخر وفأس ورأس هم عبارة عن رؤساء عصابات اللصوص .
- (١٦) الغربى نوع من الشجر ما أصابته الشمس بحرما عند أفوها ، ونوع من الحر .
- (١٧) البارد .
- (١٨) نوع من الورد .
- (١٩) الخزوف يلعب به الصبيان وهو المعروف فى بلاد الشام بالبلبل والصباح .

وأنت غلام لسانك فوق عقلك^(١) ، وذاكوك فوق حزمك . لم تعجمك الضراء . ولم تزل في السراء . والمال واسع ، وذرعك ضيق وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن الظن بالناس ، فإنهم شمالك على يمينك^(٢) ، وسمعتك على بصرك^(٣) . وخف عباد الله على حسب ما ترجو الله ، فأول ما وقع في روعي أن مالي محفوظ على . وأن النماء لازم لي . وأن الله سيحفظ عقي من بعدى .

إني ما غلبتني يوماً شهوتي ، وأخرجت يوماً درهماً لقضاء وطرى . ووقعت عيني على سكتة^(٤) . وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت في نفسي : إني أذن لمن الخاسرين الضالين ، لأن أنا أخرجت من بين يدي ومن بيتي شيئاً عليه (لا إله إلا الله) أخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء ! والله إن المؤمن ليتزع خاتمته للأمر يريد ، وعليه « حسي الله » أو « توكلت على الله » ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - ، حتى يرد له الخاتم في موضعه . وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام^(٥) كما هو ! إن هذا لعظيم .

ومات^(٦) من ساعته . وكفته ابنه ببعض خلقانه^(٧) . وغسله بماء البئر . ودفنه من غير أن يصرخ له ، أو يلحد له^(٨) ورجع . فلما صار في المنزل ، نظر إلى جرة خضراء معلقة ، قال : أي شيء في هذه الجرة ؟ قالوا : ليس اليوم فيها شيء . قال : فأى شيء كان فيها قبل اليوم ؟ قالوا : سمن . قال : وما كان يصنع به ؟ قالوا : كنا في الشتاء نلقى له في البرمة شيئاً من دقيق نعمله له ، فكان ربما برقه بشيء من سمن^(٩) . قال : يقولون ولا يعقلون . السمن أخو العسل ، وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السمن والعسل ! والله إني لولاً أن للجرة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره ! قالوا : فخرج فوق أبيه^(١٠) ، وما كنا نظن أن فوقه مزيداً .

* * *

المخطراتي^(١١) : الذي يأتيك في زى ناسك ، ويريك أن « بابك »^(١٢) قد قور لسانه^(١٣) من أصله ، لأنه كان مؤذناً هناك . ثم يفتح فاه ، كما يصنع من يتشاءب ، فلا ترى له لساناً البتة ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور . وأنا أحد من خدع بذلك . ولا بد للمخطراتي أن يكون معه واحد

- (١) بمعنى ان قولك يسبق تفكيرك .
 (٢) أي أنهم لشروهم كاليد الشمال تغطي على اليمن .
 (٣) أي يغطي تأثيرهم فيك كما يغطي السمع على البصر .
 (٤) نقشه .
 (٥) كما كب على الدرهم .
 (٦) نيابه البالية .
 (٧) أي يجعل له ضرباً .
 (٨) جعل فيه قليلاً من السمن .

(١٠) أي فاق أباه في البخل .

(١١) يبدأ الجاحظ هنا في شرح الكلمات التي سبقت على لسان خالويه .

(١٢) قطعته .

(١٣) ملك من ملوك الفرس .

يعبر عنه ، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شانه وقصته .

والكاغاني : الذى يتجنن ويتصارغ^(١) ويزبد ، حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له ، لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على علته .

والبانوان : الذى يقف على الباب ويسل الغلق^(٢) ويقول : « بانوا » وتفسير ذلك بالعربية : يا مولاي .

والفرسى : الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ويبيت على ذلك ليلة ، فإذا تورم واختق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين^(٣) وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خرقه ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه أن به الإكالة^(٤) ، أو بلية شبه الإكالة .

والمشعب : الذى يحتمل للصبي حين يولد بأن يعميه أو يجعله أعسم^(٥) أو أعضد^(٦) ، ليسأل الناس به أهله . وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغمم الثقيل^(٧) ، لأنه يصير حيثئذ عقدة وغلة^(٨) ، فإما أن يكتسبها به ، وإما أن يكرهاه بكراء معلوم ، وربما أكرها أولادهم ممن يمضى إلى أفريقية ، فيسأل بهم الطريق أجمع ، بالمال العظيم . فإن كان ثقة مليئاً^(٩) ، وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً .

والفلور : الذى يحتمل لخصيته حتى يربك أنه آدر ، وربما أراك أن بهما سرطاناً أو خراجاً أو عرباً^(١٠) ، وربما أرى ذلك فى دبره بأن يدخل فيه حلقوماً ببعض الرثة ، وربما فعلت ذلك المرأة بفرجها .

والكاخان : الغلام المكدى ، إذا واجر^(١١) ، وكان عليه مسحة جمال ، وعمل العملين جميعاً .

والعوراء : الذى يسأل بين المغرب والعشاء ، وربما طرب إن كان له صوت حسن وخلق شجى .

والإسطيل : هو المتعامى إن شاء أراك أنه منحسف العينين ، وإن شاء أراك أن بهما ماء ، وإن

- (١) يتظاهر بأنه مصروع .
- (٢) يخرج القفل من الباب حتى يفتح .
- (٣) صمغ شجرة .
- (٤) الحكمة والحرب .
- (٥) أن كان المكزى غنياً . وجواب الشرط محذوف . أن تقدم فوراً .
- (٦) أى يغل ربيعاً .
- (٧) أى يغل ربيعاً .
- (٨) أى يغل ربيعاً .
- (٩) أى يغل ربيعاً .
- (١٠) أى يغل ربيعاً .
- (١١) أى يغل ربيعاً .

شاء أراك أنه لا يبصر للخسف ، ولريح السبل^(١)

والمزیدی : الذى يدور ومعه الدرهمات ، يقول : هذه دراهم قد جمعت لى فى ثمن قطيفة ، فزيدونى فيها رحمكم الله ! وربما احتمل صبيًا على أنه لقيط . وربما طلب فى الكفن^(٢) .

والمستعرض : الذى يعارضك ، وهو ذو هيئة وفى ثياب سالحة ، وكأنه قد مات من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة ، ثم يعترضك اعتراضًا ، ويكلمك خفيًا .

والمعدس : الذى يقف على الميت يسأل فى كفنه ، ويقف فى طريق مكة على الحمار الميت ، والبعير الميت ، يدعى أنه كان له ، ويزعم أنه قد أحصر^(٣) ، وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والافريقية ، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال . وهو متى شاء كان أفريقيًا ومتى شاء كان من أهل فرغانة ، ومتى شاء كان من أى مخاليف^(٤) اليمن شاء .

والمكدي صاحب الكداء .

والكعبي : أضيف إلى أبى كعب الموصلى ، وكان عريفهم بعد خالوية سنة على ماء^(٥) .

والزكورى : هو خبز الصدقة ، كان على سجين أو على سائل .

هذا تفسير ما ذكر خالوية فقط ، وهو أضعاف ما ذكرناه فى العدد ، ولم يكن يجوز أن تتكلف شيئًا ليس من الكتاب فى شيء .

* يحيى بن عبد الله وقصته :

رفع يحيى بن عبد الله بن خالد بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد رغيفًا من خوانه بيده : ثم رطله^(٦) ، والقوم يأكلون ، ثم قال : يزعمون أن خبزي صغار ، أى ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟

* خوان فلان :

وكننت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يسار النظام وقطرب النحوى وأبو الفتح ، مؤدب منصور بن زياد ، على خوان فلان بن فلان ، والخوان من جزعة^(٧) ، والغضار^(٨) صبي

(٥) أى تزعمهم لمدة سنة وهم مقيمون على غديره أو نحوه .

(٦) وزنه .

(٧) أى من رخام مجزع مقطع بألوان مختلفة .

(٨) الطين الذى يصب منه الخنزف . والمقصود الصحاف .

(١) داء يصيب العين .

(٢) أى ثمن كفن الميت له .

(٣) لم يستطع السير لموت دابته .

(٤) مدن أو قرى .

ملمع ، أو خلنجية^(١) كيمائية^(٢) ، والألوان طيبة شهية ، وغذية قذية ، وكل رغيغ في بياض الفضة ، كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر عدد الرووس ، فأكل كل إنسان رغيغه إلا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يغذوا بشيء فبتموا أكلهم ، والأيدى معلقه ، وإنما هم في تنقيب وتنقيب . فلما طال ذلك عليهم ، أقبل الرجل على أبي الفتح - ونحت القصعة رقاقة - فقال : يا أبا الفتح ! خذ ذلك الرغيغ فقطعه واقسمه على أصحابنا . فتغافل أبو الفتح ! ثم أعاد عليه القول ، فتغافل ! فلما أعاد عليه القول الرابعة قال : مالك وملك لا تقطعه بينهم ؟ قطع الله أوصالك ! قال : تبلى على يدى غيرى أصلحك الله ! فخرجناه مرة ، وضحكناه مرة ، وما ضحك صاحنا وما خجل

وزرته أنا والمكى ، وكنت أنا على حمار مكارى ، والمكى على حمار مستعار ، فصار الحمار إلى أسوأ من حال المزود^(٣) ، فكلم المكى غلماناه^(٤) فقال : لا أريد منكم التبن فما فوقه ، أسقوه ماء فقط ، فسقوه ماء بئر فلم يشربه الجار وقد مات عطشا ، فأقبل المكى عليه فقال : أصلحك الله ! إنهم يسقون حمارى ماء بئر ، ومنزل صاحب الحمار على شارع دجلة ، فهو لا يعرف إلا العذب ، قال : فامزجه له يا غلام ! فمزجه فلم يشربه ، فأعاد المسألة ، فأمكنه^(٥) من أن لا يسمع إلا ما يشتهى .

وقال لى مرة : يا أخى إن ناساً من الناس ، يغمسون اللقمة إلى أصبارها^(٦) فى المرى^(٧) ، فأقول : هؤلاء قوم يحبون الملوحة ، ولا يعجبون بالحامض ! فما ألث أن أرى أحدهم يأخذ حرف الجرذقة^(٨) ، فيغمسها فى الخل الحاذق ، ويغرقها فيه ! وربما رأيت أحدهم يمسكها فى الخل بعد التفريق ساعة ، فأقول : هؤلاء قوم يجمعون حب الحموضة إلى حب الملوحة ! ثم لا ألث أن أراهم يصنعون مثل ذلك بالخرذل ، والخرذل لا يرام . قل لى : أى شىء طبائع هؤلاء ؟ وأى ضرب هم ؟ وما دواؤهم ؟ وأى شىء علاجهم ؟ فلما رأيت مذهبه وحمقه ، وغلبة البخل عليه وقهره له قلت . ما لهم عندى علاج هو أنجع فيهم من أن يمينوا الصباغ^(٩) كله ! قال : لا والله ! إن هو غيره^(١٠) .

* تغريم الدينار :

وصديق لنا آخر كنا قد ابتلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ،

- (١) مسوية إلى خلنج : شجر تصنع من الأوانى ، والمعنى أن الصحاف إما صينية أو خلنجية .
- (٢) نسبة إلى كيماء : ولاية فى حدود الصين .
- (٣) أى بسبب المزود الخالى من العلف .
- (٤) غلمان الرجل الذى يزورونه .
- (٥) الضمير عائذ إلى المسألة بمعنى السؤال .
- (٦) أى أنه غير ما قلت . وهو ان يمينوا من الصباغ وغيره .
- (٧) جمع نواحيها .
- (٨) المكامخ (السلطة)
- (٩) الرغيغ ، وهى كلمة معربة .
- (١٠) ما يصغ به الخبز من الخل ونحوه .

وهجس ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمره . فكان يتزهد في تكثير الطعام وفي إظهار الحرص على أن يؤكل ، حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمانه ديناراً ! فیری بعضهم إن غرم ديناراً^(١) أو ظاهر لائمه^(٢) محتمل في رضا قلبه ، وما يرجو من نفع ذلك له^(٣) ؟

* خباز لا يقوم بعمله :

ولقد خبرني خباز لبعض أصحابنا أنه جلده على إنضاج الخبز ، وأنه قال له : أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي واجعل خبز من يأكل معي على مقدار بين المقدارين^(٤) ، وأما خبز العيال والضيف فلا تقرينه من النار إلا بقدر ما يصير العجين رقيقاً وبقدر ما يتأسك فقط . فكلفه العويس فلما أعجز ذلك جلده حد الزاني الحر^(٥) .

* وجلدوا الشواء :

فحدثت بهذا الحديث عبد الله العروضي ، فقال : ألم تعرف شأن الجدي ؟ ضرب^(٦) الشواء ثمانين سوطاً لمكان الانضاج^(٧) ! وذلك أنه قال له ضع الجدي في التنور حين نضع الخوان . حتى استبطت أنا في انضاجه ، وتقول أنت : بقى قليل ! ثم تجئنا به وكأنى قد أعجلتلك ، فإذا وضع بين أيديهم غير منضج احتسبت عليهم باحضار الجدي ، فإذا لم يأكلوه أعدته إلى التنور ، ثم أحضرتاه الغد بارداً ، فيقوم الجدي الواحد مقام جديين فجاء به الشواء يوماً نضجاً : فجلده فيه القوم . فجلده ثمانين جلدة . جلد القاذف الحر ! .

* صديق ضخم البدن :

وحدثني أحمد بن المثنى ، عن صديق لي وله ، ضخم البدن كثير العلم ، فاشى الغلة^(٨) عظيم الولايات أنه : إذا دعا على مائدته بفضل^(٩) دجاجة ، أو بفضل رقاق ، أو غير ذلك . الخادم مع الخباز إلى القهرمان^(١٠) ، حتى يصك له^(١١) بذلك إلى صاحب المطبخ .

ولقد رأيت مرة وقد تناول دجاجة فشققها نصفين ، فألقى نصفها إلى الذي عن يمينه ، ونصفها إلى الذي عن شماله ، ثم قال : يا غلام ! جئني بواحدة خصمة^(١٢) ، فإن هذه كانت عضلة جداً

(١) بفضه أى تشفيه من غرمة إن غرم أحد.

(٧) بيه .

(٨) غنياً تمل أملاكه كثيراً .

(٢) لومه الظاهر .

(٩) بزيادة .

(٣) أى يسر في نفسه الرضا لما يحصله من نفع .

(١٠) القائم على الخزن .

(٤) على حال وسط .

(١١) يكب له صكاً (وصلاً) .

(٥) غير العيد ، الحر بجلد مائة جلدة ، والعيد خمسين .

(١٢) طرية .

(٦) أى بعض أصحابنا .

فحسبت أن أقل ما عند الرجلين أن لا يعودا إلى مائدته أبداً ، فوجدتها قد فخرنا على بما حباهما به من ذلك دوني .

وكانوا^(١) ربما خصوه ، فوضعه بين يديد الدراجة^(٢) السمينة ، والدجاجة الرخصة ، فأنطفأت الشمعة في ليلة من تلك الليالي فأغار على الأسواري على بعض ما بين يديه ، واغتم الظلمة وعمل على أن الليل أخفى للويل ، ففطن له ، وما هو بالفطن إلا في هذا الباب . وقال : كذلك الملوك كانت لا تأكل مع السوقة .

وحدثني أحمد بن المنبجي : أنهم كانوا يعمدون إلى الجراذق^(٣) التي ترفع عن مائدته ، فما كان منها ملطخاً ذلك دلوكاً شديداً ، وما كان منها قد ذهب جانب منه ، قطع بسكين من ترابع الرغيف مثل ذلك ، لئلا يشك من رآه أنهم قد تعمدوا ذلك ، وما كان من الأنصاف والأرباع جعل بعضه للثريد وقطع بعضه كالأصابع ، وجعل مع بعض القلايا^(٤)

* رجل فخم اللفظ :

ولقد رأيت رجلاً وضخماً ، فخم اللفظ ، فخم المعاني ، تربية في ظل ملك ، مع علم جم ، ولسان غضب ، ومعرفة بالفامض من العيوب ، والدقيق من المحاسن ، مع شدة تسرع إلى أعراض الناس ، وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم ، وإن ثريدته لبلقاء^(٥) ، إلا أن يياضها ناصع ، ولونها الآخر أصهب^(٦) . ما رأيت ذلك مرة ولا مرتين . وكنت قد هممت قب ذلك أن أعاتبه على الشيء يستأثر به ، ويخص به ، وأن احتمل ثقل تلك النصيحة وبشعتها ، في حظه وفي النظر له^(٧) . ورأيت أن ذلك لا يكون إلا من حاق الأخلاص^(٨) ، ومن فرط الإخاء بين الإخوان . فلما رأيت البلقة هان على التحجيل والغرة^(٩) ، ورأيت أن ترك الكلام أفضل ، وأن الموعدة لغو .

وقد زعم أبو الحسن المدائني أن ثريدة مالك بن المنذرة كانت بلقاء ، ولعل ذلك أن يكون باطلاً . وأما أنا فقد رأيت بعيني من هذا الرجل ما أخبرك به ، وهذا الشيء لم أراه إلا فيه ،

(١) أي من يخدمون على المائدة .

(٢) نوع من الطير .

(٣) الأرخفة .

(٤) جمع قيلة وهي المرققة .

(٥) فيها يياض وحمرة .

(٦) محمر .

(٧) من أجل خيره ومنفحته .

(٨) صادقة .

(٩) التحجيل : يياض في قوائم الفرس يصل إلى الساق ، والعزة : يياض في جبه الفرس ، والبلقة : ارتفاع التحجيل إلى الفخذين . يقول : إنه كان يريد أن يعاتبه على الاستثار فلما رأى بخله هان عليه الاستثار ومثل لذلك بالبلقة التي يهون إلى جانبها التحجيل والعزة .

ولا سمعت به في غيره .

ولسنا من تسمية الأصحاب^(١) ، المهتكين ، ولا غيرهم على المستوردين في شيء . أما
الصاحب فأنا لا نسميه لحرمة وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستراقة عليه ، ولما يجب لمن كان
في مثل حاله . وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح
بهذا كثيراً ، ورأيناه ينتظر به ، ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه !

* قصة جعفر الطرطوسي :

ولم أر مثل أبي جعفر الطرطوسي :

زار قومًا فأكرموه وطيبوه ، وجعلوا في شاربه وسبلته غالية^(٢) فحك بها شفته العليا . فأدخل
أصبعه فحكها من باطن الشفة . مخافة أن يأخذ أصبعه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق .
وهذا وشبه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ،
لا يأتي لك على كنهه ، وعلى حدوده وحققه .

* قصة الجزامي^(٣) :

وأما أبو محمد الجزامي ، عبد الله بن كاسب ، كاتب موسى ، وكاتب داود بن أبي داود ،
فإنه كان أجمل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله ، وكان له في البخل كلام . وهو أحد من ينصره
ويفضله . ويحتج له ، ويدعو إليه .

وإنه رآني مرة في تشرين الأول ، وقد بكر البرد شيئاً فلبست كساء لي قومياً^(٤) حفيفاً قد نيل
منه ، فقال لي : ما أقبح السرف بالعاقل ، وأسمج الجهل بالحكيم ! ما ظننت أن إهمال النفس ،
وسوء السياسة^(٥) ، بلغ بك ما أرى . قلت : وأي شيء أنكرت منا منذ اليوم ؟ وما كان هذا
قولك فينا بالأمس ؟ فقال : لبسك هذا الكساء قبل أوامه . قلت : قد حدث من البرد بمقداره ،
ولو كان هذا البرد الحادث في تموز وآب لكان إباناً لهذا الكساء ، قال : إن كان ذلك كذلك ،
فاجعل بدل هذه المبطنة^(٦) جبة محشوة ، فإنها تقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ
فأما لبس الصوف اليوم ، فهو غير جائز ! قلت : ولم ؟ قال : لأن غبار آخر الصيف يتداخله ،

(١) يقصد البخلاء المجاهرين .

(٢) المقصود بالسبله ، والغالية : نوع من الطيب .

(٣) اسمه : عبد الله بن كاسب . أبو محمد الجزامي ، عمل كاتباً لدى أكثر من مشهور منهم داود بن أبي داود .

(٤) مصنوع في (قومس) . (٥) تدبير الأمور . (٦) ذلك الكساء .

ويسكن في خله ، فإذا أمطر الناس ، وندى الهواء . وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ! وإنما الغبار تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح ويتقبض عند ذلك عليه الكساء ويتكرش ، لأنه صوف ، فتضم أجزاءه عليه ، فيأكله أكل القادح^(١) ، ويعمل فيه عمل السوس ! وهو أسرع فيه من الأرضية في الجدوع النجرانية^(٢) ! ولكن أحر لبسه حتى إذا أمطر الناس وسكت الغبار ، وتلبد التراب ، وحط المطر ما كان في الهواء من الغبار ، وغسله وصفاه ، فألبسه حينئذ على بركة الله .

وكان يقع إلى عياله بالكوفة كل سنة مرة ، فيشتري لهم من الحب مقدار طحينهم ، وقوت سنتهم ، فإذا نظر إلى حب هذا ، وإلى حب هذا ، وقام على سعره ، اكتال من كل واحد منها كيلة معلوماً وزنها بالميزان ، واشترى أثقلها وزناً . وكان لا يختار على البلدى والموصل شيئاً ، إلا أن يتقارب السعر . وكان على كل حال يفرض من الميساني^(٣) ، إلا أن يضطر إليه ، ويقول : هو ناعم ضعيف ، ونار المعدة شيطان ، فإنما ينبغى لنا أن نطعم الحجر . وما أشبه الحجر . وقلت له مرة : أعلمت أن الخبز البلدى ينبت عليه شيء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز ، وليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار^(٤) .

وكان إذا لبس جديد القميص ومغسوله ، ثم أتوه بكل بخور في الأرض ، لم يتبخر مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه ، فإن اتسخ ، فأتى بالبخور ، لم يرض بالتبخر ، واستقصاء ما في العود من القنار^(٥) ، حتى يدعو بدهن ، فيمسح به صدره وبطنه وداخله أزاره ، ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور .

وكان يقول : حبذا الشتاء ، فإنه يحفظ عليك رائحة البخور ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق إن بقى أياماً .

وكان لا يتبخر إلا في منازل أصحابه ، فإذا كان في الصيف دعا بثيابه فلبسها على قميصه لكيلا يضيع من البخور شيء .

وقال مرة : إن للشيب سهكة^(٦) وبياض الشعر هو موته ، وسواده حياته . ألا نرى أن موضع دبرة^(٧) الحمار الأسود لا ينبت إلا أبيض ؟ والناس لا يرضون منا في هذا العسكر^(٨) إلا بالعناق

(٦) رائحة كريمة .

(٧) فرحة .

(٨) البلد :

(١) حشره .

(٢) جذوع شجر نجران .

(٣) أى من الحب المنسوب إلى ميسان .

(٤) ليكون عسر الهضم .

(٥) الدخان الذى يخرج من العود .

والثام ، والطيب غال . وعادته رديئة ^(١) . وينبغي لمن كان أيضاً عنده أن يحرسه ويحفظه من عياله ، وإن العطار ليختمه ^(٢) على أخص غلغانه به ، فليست أرى شيئاً هو خير من اتخاذ مشط صندل . فإن ريحه طيبة . والشعر سريع القبول ، وأقل ما يصنع أن يبنى سهك الشيب ! فصرنا في حال « لا » لنا ولا علينا ^(٣) فكان عطر الحزامي - إلى أن فاروق الدنيا - مشط صندل ، إلا أن طيبة صديق .

واستلف منه على الأسواري مائة درهم ، فجائني وهو حزين منكسر . فقلت له : إنما يحزن من لا يجد بدا من إسلاف الصديق ، مخافة ألا يرجع إليه ماله ! ولا بعد ذلك هبة منه ! أو رجل يخاف الشيكة ^(٤) ، فهو إن لم يسلف كرمًا أسلف خوفًا . وهذا ^(٥) باب : الشهرة فيه من قرة عينك . وأنا واثق باعتزامك وتصميمك وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك ، فما وجه انكسارك واغتمامك ؟ قال : اللهم غفرا ، ليس ذلك بي . إنما في أتى قد كنت أظن أن اطماع الناس قد صارت بمعزل عني ، وآيسة مني . وأنى قد أحكت هذا الباب وأتقنته وأودعت قلوبهم اليأس ، وقطعت أسباب الخواطر . فأراني واحد منهم ^(٦) ! إن من أسباب إفلاس المرء طمع الناس فيه ، لأنهم إذا طمعوا فيه ، احتالوا له الخيل . ونصبوا له الشرك . وإذا يشوا منه . فقد أمن . وهذا المذهب من على استضعاف شديد ^(٧) . وما أشك أتى عنده غمر ^(٨) وأنى كبعض من يأكل ماله ! وهو مع هذا خليط وعشير . وإذا كان مثله لم يعرفني . ولم يتقرر عنده مذهبي ، فما ظنك بالجيران ؟ بل ما ظنك بالمعارف ؟ أراني أنفخ في غير فحم ، وأقدح بزند مصلد ! ما أخوفني أن أكون قد قصد إلى بقول . ما أخوفني أن يكون الله في سمائه قد قصد إلى أن يفقرني .

قال : ويقولون : ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك . فما يقولون إن كان أقصر مني ؟ أليس يتخبل في قيصي ؟ وإن كان طويلاً جداً وأنا قصير جداً . فلبسه ، أليس بصير آية للسائلين ^(٩) ؟ فمن أسوأ أثرًا على صديقه ممن جعله ضحكة للناس ؟ وما ينبغي لي أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلي ! ومتى يتفق هذا ، وإلى ذلك محيا وممات ؟ ^(١٠)

وكان يقول : أشهى اللحم الذي تراه ، واشتهى أيضاً الذي فيه بعض الصلابة ! وقلت له مرة : ما أشبهك بالذي قال : أشهى لحم دجاجتين ! قال : وما تصنع بذلك القائل ؟ هو ذا أنا

- | | |
|--------------------------------------|---|
| (١) لأنه يكلف مالا . | (٦) أى أن الأسواري بما صنعته آراه واحداً من أولئك الناس . |
| (٢) يختم عليه . | (٧) أى أنه يستضعف ويستلف مني . |
| (٣) ملامحة لنا ولا كلفة فيها علينا . | (٨) لا يفهم الأمور (عيب أو أبله) . |
| (٤) يخاف المشكو منه لشدة بأسه . | (٩) سخوية لأهل السبل . |
| (٥) البخل . | (١٠) إلى أن يتم ذلك تحيا ناس وتموت ناس . |

أشتهى لحم دجاجتين ، واحدة خلاسية^(١) مسمنة ، وأخرى خوامزكة^(٢) رخصة .

وقلت له مرة : قد رضيت بأن يقال : عبد الله بخيل ؟ قال : لا أعدمني الله هذا الأسم ! قلت : وكيف ؟ قال : « لأنه » لا يقال فلان بخيل ، إلا وهو ذو مال ! فسلم إلى المال ، وادعنى بأى اسم شئت ! قلت : ولا يقال أيضاً فلان سخى ، إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الأسم الحمد والمال ، واسم البخيل يجمع المال والذم ، فقد اخترت أحسها وأوضعها . قال : وبينها فرق ! قلت : فهاته ، قال : فى قولهم بخيل تثببت لاقامة المال فى ملكه ، وفى قولهم سخى ، إخبارك عن خروج المال من ملكه ، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم ، واسم السخى اسم فيه تضييع وحمد ! والمال زاهر نافع مكرم لاهله معز ، والحمد ريح وسخرية ، واستماعك له ضعف وفسولة^(٣) . وما أقل غناء الحمد - والله - عنه إذا جاع بطنه ، وعرى جلده ، وضاع عياله ، وشمت به من كان يحسده .

وكنا عند داود بن أبى داود بواسط ، أيام ولايته كسكر ، فأثته من البصرة هدايا فيها زقاق دبس^(٤) ، فقسمها بيننا ، فكل ما أخذ منها الحزامى أعطى غيره ، فأنكرت ذلك من مذهبه ولم أعرف جهة تدبيره ، فقلت للمكى : قد علمت أن الحزامى إنما يجزى من الإعطاء ، وهو عدوه ، فأما الأخذ ، فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان ، وشعابين مصر وحيات الأهواز ، لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها ! فعساه أراد التفضيل فى القسمة^(٥) . قال : أنا كاتبه ، وصدقتى أقدم ، وما ذلك به . وإن ههنا أمراً ما نقع عليه^(٦) ! فلم يلبث أن دخل علينا ، فسألته عن ذلك ، فتعصر^(٧) قليلاً ، ثم باح بسرّه ، قال : وضعته^(٨) أضعاف ربحه ، وأخذته عندى من أسباب الإدبار . قلت : أول وضائعه احتمال السكر ؟ قال : هذا لم يخطرنى قط على بال . قلت فهات اذن ما عندك قال : أول ذلك كراء الحمال ، ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل ، فإذا صار إلى المنزل ، صار سبباً لطلب العصيدة والأرز والبستندود^(٩) . فإن بعته فراراً من هذا صيرتمونى شهرة ، وتركتمونى عنده آية ! وإن أنا حبسته ذهب فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضر علينا من العيال ، وإن أنا جعلته نبيذاً احتجت إلى كراء القدور ، وإلى شراء الحب^(١٠) . وإلى

(١) مجسنة من ديك هندى ودجاجة فارسية أو العكس .

(٢) نوع جيد .

(٣) ندالة .

(٤) الزقاق : جمع زق وهو يشبه القرية ، والدبس عسل النحل .

(٥) أى لعله رأى أن زاد فضل غيره عليه فى القسمة فغضب عليه .

(٦) ما نهدى إليه .

(٧) قتمع .

(٨) خسارته أى خسارة الدبس .

(٩) نوع من الفطير .

(١٠) الحب هو الحرة .

شراء الماء ، وإلى كراء من يوقد تحته ، وإلى التفرغ له . فإن وليت ذلك الخادم أسود ثوبها . وغرمتا ثمن الأثنان والصابون ، وازدادت في الطعام على قدر الزيادة في العمل . فإن فسد ذهبت النفقة باطلاً ، ولم نستخلف منها عوضاً بوجه من جميع الوجوه ، لأن خلل الداذى يخضب اللحم ويغير الطعم ، ويسود المرق ، ولا يصلح إلا للاصطباغ وهذا إذا استحال خلا^(١) ، وأكثر ذلك أن يحول عن النييد ولا يصير إلى الخلل . وإن سلم - وأعوذ بالله - وجاد وصفا ، لم نجد بدأ من شره ، ولم تطب أنفسنا بتركه ، فإن قعدت في البيت أشربه منه .

لم يمكن إلا بترك سلاف الفارسي^(٢) المعسل ، والدجاج المسمن وجداء كسكر^(٣) ، وفاكهة الجبل ، والنقل المش والريحان الغض ، عند من لا يغيض ماله ، ولا تنقطع مادته ، وعند من لا أبالي على أى قطرية سقط^(٤) ، مع فوت الحديث المؤنس ، والسماع الحسن . وعلى أفى إن جلست في البيت أشربه ، لم يكن لى بد من واحد ، وذلك الواحد لا بد له من درهم لحم ، ومن طسوج^(٥) نقل ، وقيراط ريحان ، ومن أبدال^(٦) للقدر ، ومن حطب للوقود ! وهذا كله غرم . وهو بعد هذا شؤم وحرقة^(٧) ، وخروج من العادة الحسنة . فإن كان ذلك النديم غير موافق ، فأهل الحبس أحسن حالاً منى ! وإن كان - وأعوذ بالله - موافقاً ، فقد فتح الله على مالى باباً من التلف . لأنه حينئذ يسير في مالى كسيرى في مال من هو فوقى . وإذا علم الصديق أن عندى داذياً أو نييداً ، دق الباب دق المدل^(٨) ، فإن حجباه قبلاء وإن أدخلناه فشقاء .

وإن بدأ لى في استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه منى من أكون عنده ، فقد شاركت المسرفين ، وفارقت إخوانى من المصلحين ، وصرت من إخوان الشياطين . فإذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبى عن مال غيرى ، وصار غيرى يكتسب منى وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليت بأن أعطى ولا آخذ ! أعوذ بالله من الخذلان بعد الصمة ، ومن الحور بعد الكور . لو كان هذا في الحدائة كان أهون .

هذا الدوشاب^(٩) دسيس من الحرقة^(١٠) ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود ، وهو الحلاوة التى تعقب المرارة ! ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتى ، فهو يحتال لى الخيل .

(١) خمير .

(٢) جداء : جمع جدى ، وكسكر : بلد .

(٣) قال ابن مسعود : لا يعجبك ما تسمى . من المره حتى تنظر على أى فطريق . أى على أى شقيه . أطل شق الإسلام أو غيره .

(٤) من وحدات الوزن .

(٥) جمع بزر وهو التايل .

(٦) فقر .

(٧) لم أحمله .

(٨) الدبس .

(٩) الذى يمرؤ لصدائقه (لعشمه) .

(١٠) رسول من القفر .

وكننا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو^(١) بعيد المكان مني ، فأقبل على المكى وقال - والقوم يسمعون - فقال : يا أبا عثمان ! من أجل أصحابنا ؟ قلت أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ قلت : صاحب لنا لا أسميه . قال الحزامي من بعيد : إنما يعني ! ثم قال : حسدتم للمقتصدین تدبيرهم ، ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم ، فالتسمت تهجينهم بهذا اللقب ، وأدخلتم المكر عليهم بهذا النبز^(٢) . تظلمون المتلف لماله باسم الجود ، إدارة له شينة وتظلمون المصلح لما له باسم البخل ، حسداً منكم لنعمته ! فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم .

* حديث خالد بن القسري :

قال ابو عبيدة : بلغ خالد بن عبد الله القسري ، أن الناس يرمونه بالبخل على الطعام . فتكلم يوماً ، فما زال يدخل كلاماً في كلام ، حتى أدخل الاعتذار من ذلك في عرض كلامه ، فكان مما احتج به في شدة رؤية الأكيل^(٣) عليه ، وفي نفوره منه ، أن قال : نظر خالد المهزول في لجاهلية يوماً ، إلى ناس يأكلون ، وإلى إبل تجتر . فقال لأصحابه : أتروني بمثل هذه العين التي رى بها الناس والإبل ؟ قالوا : نعم ! فحلف بإلهه أن لا يأكل بقلأ ، وإن مات هزلاً^(٤) ، وكان يغتذى اللبن ويصيب من الشراب ، فأضمره ذلك ، وأيسه ، فلما دق جسمه واشتد هزاله ، سمي : المهزول .

ثم قال خالد : هانذا مبتلى بالمضغ ، ومحمول على تحريك اللحين^(٥) ، ومضطر إلى مناسبة البهائم ، ومحتمل ما في ذلك من البسخف والعجز ، ما أبالي ، احتملته فيمن لي منه بد ، ولي عنه مذهب ، ليأكل كل امرئ في منزله ، وفي موضع أمنه ، وأنسه ودون ستره وبابه . هذا ما بلغنا عن خالد بن عبد الله القسري ، واحتجاجة .

فأما خالد المهزول فهو أحد الخالدين ، وهما سيدا بني أسد ، وفيه وفي ابن نضلة يقول الأسود ابن يعفر :

وقبلك مات الخالدان كلاهما : عميد بني حجوان وابن المضلل^(٦)

- (١) الحزامي .
 (٢) النبز : التعبير بالألقاب ، والمعنى أنكم أدخلتم المكر في لقب (البخيل) . (٥) عظم الحنك الأعلى والأسفل .
 (٣) الذي يؤاكل .
 (٦) جاء في اللسان : قال ابن برى : صواب إنشاده : (فقبل) بالفاء ، لأن قبله :
 فإن يك يومي قد دنا وإخاله كواردة يوماً إلى ظمء منهل
 وعميد بني حجوان هو خالد بن نضلة بن الأشتر . وابن المضلل هو خالد المهزول . وقال في اللسان : ومضلل بفتح اللام - اسم رجل من أسد .

* قصة الحارثي :

وقيل للحارثي بالأمس :

والله إنك لتصنع الطعام فتجيده . وتعظم عليك النفقة ، وتكثر منه . وإنك لتغالي^(١) بالخبز والطباخ والشواء والحياص^(٢) ثم أنت - مع هذا كله - لا تشهده عدوًا لتغمه . ولا وليًا فتره . ولا جاهلاً لتعرفه . ولا زائرًا لتعظمه . ولا شاكراً لتثيبه ، وأنت تعلم حين يتنحى من بين يديك . ويغيب عن عينيك . فقد صار نهباً مقسماً . ومتوزعاً مستهلكاً . فلو أحضرته من ينفع شكره ، ويبقى على الأيام ذكره . ومن يمتعك بالحديث الحسن والاستماع . ومن يمتد به الأكل ويقصر به الدهر^(٣) . لكان ذلك أولى بك . وأشبه بالذي قدمته يدك .

وبعد فلم تبيح مصون الطعام لمن لا يحمذك ، ومن أن حمدك لم يحسن أن يحمذك . ومن لا يفصل بين الشهى الغذى . وبين الغليظ الزهم^(٤) .

قال بمعنى من ذلك ما قال أبو الفاتك . قالوا : ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضي الفتيان^(٥) ، وإنى لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ما ذمه . وبعض ما شنعه وقبحه ، فشىء يقبح بالشطار^(٦) . فما ظنك به إذا كان في أصحاب المروءات . وأهل البيوتات ؟ قالوا : فما قال أبو الفاتك :

قال : قال أبو الفاتك : الفتى^(٧) لا يكون نشافاً ، ولا نشالاً . ولا مرسالاً . ولا لكاماً ، ولا مصاصاً ، ولا نفاصاً ، ولا ولاكاً ، ولا مقوراً ، ولا مغربلاً ، ولا محلقماً ، ولا مسوغاً ، ولا مبلعماً ، ولا مخضراً . فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع ، والقطاع ، والنهاش والمداد ، والدفاع ، والمحول ؟ والله إنى لأفضل الدهاقين^(٨) حين عابوا الحسو^(٩) ، وتقززوا من التعرق^(١٠) ، وبهرجوا^(١١) صاحب التمشيش^(١٢) ، وحين أكلوا بالبارجين^(١٣) ، وقطعوا بالسكين . ولزموا عند الطعام السكته ، وتركوا الخوض واختاروا الزممة^(١٤) .

-
- (١) تبذل ثمتاً غالياً .
(٢) صانع الخبيص : حلواء .
(٣) يعنى : يواكلك مدة طويلة فيؤنسك ويقصر الوقت (١٠) نهش ما على العظم من لحم بحيث لا يبقى عليه شيء .
(٤) المنز الراحة .
(٥) المراد عصابة من اللصوص ، وقصيم : رئيسهم .
(٦) اللصوص وقطاع الطرق .
(٧) جمع دققان وهو رئيس القرية .
(٨) المرادية هنا شرب المرق من الإناء مباشرة .
(٩) عابوا .
(١٠) استخراج الملح من العظم .
(١١) الكذب والباطل .
(١٢) اللص الكامل في رأيهم ، وسيأتي تفسير الجاحظ للصفات التالية (١٤) صوت مهمم .

أنا والله أحتمل الضيف والضيفين ، ولا أحتمل اللعموظ (١) ولا الجردبيل (٢) والواغل (٣) ، أهون على من الراشن (٤) ، ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء وأن جليس السوء خير من أكيل السوء ؟ لأن كل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلا . فإن كان لابد من المؤاكلة ، ولابد من المشاركة ، فمع من لا يستأثر على بالمخ ، ولا ينهز بيضة البقلىة (٥) ، ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلافة (٦) ولا يختطف كليه الجدوى ، ولا يزدرد قانصة (٧) الكركى (٨) ، ولا يتترع شاكلة (٩) الحمل ، ولا يقتطع سره الشصر (١٠) ، ولا بعرض لعيون الرؤوس ، ولا يستولى على صدور الدحاج ، ولا يسابق إلى إسقاط (١١) الفراخ ، ولا يتناول إلا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ، ولا يتشهى الغرائب ، ولا يمتحن الإخوان بالأمر الثمينة ، ولا يهتك أستار الناس بأن يتشهى ما عسى ألا يكون موجوداً .

وكيف تصلح الدنيا ، وكيف يطيب العيش مع من إذا رأى جزورية (١٢) التقط الأكباد والأسمنة ، وإذا عاين بقرية (١٣) استولى على المرق (١٤) والقطنة (١٥) ، وإن أتوا بجنب شواء اكتسح كل شىء عليه ، لا يرحم ذا سن لضعفه ، ولا يرق على حدث لحدة شهوته ، ولا ينظر للعيال ، ولا يبالي كيف دارت بهم الحال .

وإن كان لابد من ذلك (١٦) . مع من لا يجعل نصيبه فى مالى أكثر من نصيبى . وأشد من كل ما وصفنا ، وأخبث من كل ما عددنا . أن الطباخ ربما أتى باللون الطريف ، وربما قدم الشىء الغريب ، والعادة فى مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص (١٧) ، صغير الحجم ، وليس كالطفيشيلية (١٨) ولا كالمهرسة (١٩) ولا كالفجلية (٢٠) ولا كالكرنبية (٢١) وربما عجل عليه فقدمه حاراً ممتنعاً (٢٢) ، وربما كان من جوهر بطيء الفتور (٢٣) . وأصحابى فى سهولة ازدراد الحار عليهم فى طباع النعام (٢٤) ، وأنا فى شدة الحار على فى طباع السباع (٢٥) ، فإن انتظرت إلى أن يمكن (٢٦) أتوا

- | | |
|--|---|
| (١) التهم . | (١٣) مثل جزورية . |
| (٢) الذى لا يبقى على شىء من الطعام . | (١٤) القطفة من اللحم . |
| (٣) الذى يدخل بدون دعوة . | (١٥) مثل الرمانة تكون مع الكرش . |
| (٤) الذى يتحين مواعيد الأكل فيفاجئ الأكلين . | (١٦) من أن يأكل معى أحد . |
| (٥) البيضة المقلية . | (١٧) صغير الحجم . |
| (٦) نوع من الطير . | (١٨) نوع من المرق . |
| (٧) واحدة القوانص . | (١٩) الحب المطبوخ . |
| (٨) نوع من الطير . | (٢٠) (٢١) طعام يصنع من الفجل والكرب . |
| (٩) عنصرة . | (٢٢) على الأمن لحرارته . |
| (١٠) الظى القوى . | (٢٣) على طبيعة لا تبرد بسرعة . |
| (١١) أجنحة . | (٢٤) أى يسهل عليهم ابتلاع الحار كما يسهل مع النعام . |
| (١٢) لحم جزير . | (٢٥) وأنا يصعب على الحار كما يصعب على السباع (٢٦) أى إلى أن يفتر ويمكن أكله . |

على آخره ، وإن بدرت محافة الفوت وأردت ان أشاركهم في بعضه . لم آمن ضرره ، والحار ربما قتل ، وربما أعقم ، وربما أبال الدم (١) .

ثم قال : هذا على الأسوازي ، أكل مع عيسى بن سلمان بن علي ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة ، فائقة السمن . فجلط بطنها جلطة ، فإذا هو (٢) يكثر شحمًا ! وقد كان غص بلقمة ، لمستسق (٣) . ففرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة ، وكان عيسى يتخب الأكلة (٤) . ويختار منهم كل ملهوم فيه . ومفتون به ، فلما خاف على الأسوازي الإخفاق ، وأشفق من الفوت - وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي ، وانكدار العقاب من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته ! فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده . وقد رفعها إليه . وشحا لها فاه (٥) ، من غير مؤانسة ولا مازحة سالفة ؟ - قال : لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك ! ولكننا أهوينا أيدينا معًا . فوقعت يدي من مقدم الشحمة . ووقعت يده من مؤخر الشحمة معًا . والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معًا ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء ، متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر .

وأنا (٦) كيف أواكل أقوامًا يصنعون هذا الصنيع . ثم يحتجون له بمثل هذه الحجج ؟

ثم قال : إنكم تشيرون على بملابسة شرار الخلق . وأنذال الناس ، وبكل عياب متعجب ، ووثاب على أعراض الناس متسرع . وهؤلاء لم يرضوا أن يدعوهم الناس ، ولا يدعوا الناس ، وأن يأكلوا ولا يطعموا . وأن يتحدثوا عن غيرهم . ولا يباليون أن يتحدث عنهم ، وهم شرار الناس .

ثم قال : أجلس معاوية - وهو في مرتبة الخلافة ، وفي السصح من عيش ، وفي نبل أئمة ، وإصابة الرأي ، وجودة البيان ، وكمال الجسم ، وفي تمام النفس (٧) عند الجولة ، وعند تقصيف الرماح ، وتقطع السيوف - رجلاً (٨) على مائدته ، مجهول الدار ، غير معروف النسب ، ولا مذكور بيوم صالح ، فأبصر (٩) في لقمته شعرة فقال : خذ الشعرة من لقمتك - ولا وجه لهذا القول منه إلا محض النصيحة والشفقة - فقال الرجل : وإنك لتراعي مراعاة من يبصر معها

(١) جعل الإنسان يبول دمًا .

(٢) البطن (مذكر) .

(٣) طالب أن يسقى لازالة الفصحة .

(٤) الأكلين .

(٥) فضحه .

(٦) المتكلم هو الحارثي .

(٧) شجاعها .

(٨) مفعول أجلس .

(٩) معاوية .

الشعرة؟ لأجلست لك على مائدة ما حييت : ولا حكيته عنك ما بقيت فلم يدر الناس أى أمرى معاوية كان أحسن وأجمل : تغافل عنه ، أم شفقت عليه . فكان هذا جزاؤه منه وشكر له . ثم قال : وكيف أطمع من أن رأيته يقصر فى الأكل فقلت له : كل ولا تقصر فى الأكل ، قام ولم يفطن لفضل ما بين التقصير وغيره ، وإن قصر فلم أنشطه ، ولم أحثه . قال : لولا أنه وافق هواه ! (١)

ثم قال : ومد رجل من بنى تميم يده إلى صاحب الشراب يستسقيه - وعو على خوان المهلب - فلم يره الساقى ، ولم يفطن له ، ففعل ذلك مراراً والمهلب يراه ، وقد أمسك عن الأكل ، إلى أن يسبغ لقمته بالشراب . فلما طال ذلك على المهلب ، قال : اسقه يا غلام ما أحب من الشراب . فلما سقاه ، استقله وطلب الزيادة منه ، وكان المهلب أوصاهم بالإقلال من الماء ، والإكثار من الخبز . قال التمامى : إنك لسريع إلى السقى ، سريع إلى الزيادة (٢) ! وحبس يده عن الطعام . فقال المهلب : أله عن هذا (٣) أيها الرجل ، فإن هذا لا ينفعك ولا يضرنا ، أردنا أمراً ، وأردت خلافه .

وقد علمت أنى دون معاوية ، ودون المهلب بن أبى صفرة ، وأنهم (٤) إلى أسرع ، وفى لحمى أرتع .

ثم قال : وفى الجارود بن أبى سيرة لكم واعظ ، وفى أبى الحارث جمين زاجر : فقد كان يدعيان إلى الطعام وإلى الإكرام ، لظروفهما وحلاوتهما ، وحسن حديثهما وقصر يومهما (٥) ! وكانا يتشهيان ، الغرائب ، ويقترحان الطرائف ، ويكلفان الناس المؤن الثقيل ، ويمتحنان ما عندهم بالكلف الشديد (٦) فكان جزاؤهم من احسانهم ما قد علمتم .

قال : ومن ذلك أن بلال بن أبى بردة ، كان رجلاً عياباً ، وكان إلى أعراض الأشراف مسرعاً ، فقال للجارود : كيف طعام عبد الله بن أبى عثمان ؟ قال يعرف وينكر . قال : فكيف هو عليه ؟ قال : يلاحظ اللقم ، وينتزز السائل ! قال : فكيف طعام سلم بن قتيبة ؟ قال : طعام ثلاثة ، وإن كانوا أربعة جاعوا ! قال : فكيف طعام تسنيم بن الحوارى قال : نقط العروس (٧) .

(١) جواب محذوف أى ما سكت .

(٢) قال ذلك أساء الظن بالمهلب ، إذ حسبه يريد أن يجمعه من الأكل بكثرة الشرب

(٣) دع سوء الظن . (٤) أى أولئك الناس الذين لا يريدون أن يؤاكلهم .

(٥) أى أن الأئس بها يقصر الوقت .

(٦) ينزلان الخن بما عند الناس من أموال بسبب ذلك التكليف .

(٧) نقط تجعل على وجه العروس لتزيينها ، والمعنى أن الطعام قليل كهذه النقط .

قال : فكيف طعام المنجاب بن أبي عيينة ؟ قال : يقول : لا خير في ثلاث أصابع في صحفه^(١) حتى أتى على عامة أهل البصرة^(٢) ، وعلى كل من كان يؤثره بالدعوة وبالأنسة والخاصة^(٣) ، ويحكمه في ماله . فلم ينج منه إلا من كان يبعده ، كما لم يتبل به إلا من كان يقربه .

وهذا أبو شعيب القلال في تقريب مويس له . وأنسه به . وفي إحسانه إليه مع رضائه^(٤) على المأكول ، وغض طرفه عن الأكيل ، وقلة مبالاته بالحفظ . وقلة احتفاله بجمع الكثير ، سئل عنه أبو شعيب فزعم أنه لم يرق قط أشح منه على الطعام . قيل : وكيف ؟ قال : يدللك على ذلك أنه يصنعه صنعه ، ويبثه تهيئة من لا يريد أن يمسه . فضلاً عن غير ذلك . وكيف يجترى الضرس على إفساد ذلك الحسن . ونقض ذلك النظم . وعلى تفريق ذلك التأليف وقد علم أن حسنه يحشم^(٥) ، وأن جماله يهيب منه . فلو كان سخياً لم يمنع منه بهذا السلاح ولم يجعل دونه الجن^(٦) ، فحول إحسانه إساءة ، وبذله منعاً ، واستدعاه إليه نهياً^(٧) .

قال : ثم قيل لأبي الحارث جمين : كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه ؟ قال : أما عيناه فعينا مجنون !

وقال فيه أيضاً : لو كان في كفه كر^(٨) خردل . ثم لعب لعب الأبل^(٩) بالأكرة ، لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة .

وقيل له أيضاً : فكيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا جلس فوق السحاب ما تجافى عن رغي^(١٠) .

وكان أبو نواس يرتعى على خوان إسماعيل بن نبيخت ، كما ترتعى الإبل في الحمض بعد طول الخلة^(١١) ، ثم كان جزأوه منه أنه قال :

خبز إسماعيل كالواشي إذا ما شق يرفا^(١٢) .

-
- (١) وعاء يؤكل فيه .
(٢) أى ما يتناول بالدم واحداً بعد واحد حتى أتى على الجميع . (٤) سخاء مويس .
(٣) أى : ومويس يعلم أن حسن تسويق الطعام يجعل الأكيل . (٧) أى حول دعوته الناس إلى الطعام نياً لهم عنه .
(٤) جمع جنة وهى السائر المانع . (٨) الكرز مكبال .
(٥) نسبة إلى الأبله موضع بالبصرة كان لأهله شهرة في اللب بالكرة .
(٦) المراد من الطعام هنا القمح . يقول : لو اعطى من القمح عالية تصل إلى السحاب وتمنع نرف مائة ماسحاً برغي .
(٧) الحمض ما كان فيه ملوحة من النبات ، وبعد طول خلة أى بعد طول رعى الخلة . يعنى أن أبا نواس كان على ذلك الخوان كما تكون الإبل في الحمض بعد غيابها في الخلة طويلاً . إيغلاً في الأكل واندفاعاً إليه .
(٨) الوشى : نوع من الثياب المشوية . و (يرق) يصلح . ووجه الشبه الحوص والمحافظة على كل . فكما يحافظ على الوشى بالرق ، يحافظ أيضاً على الرغي . وهذا البيت من قصيدة له ، تجدها في عيون الأخبار لابن قتيبة .

وقال :

وما خبزه إلا كليب بن وائل
وكان أبو الشمقمق يعيب في طعام جعفر بن أبي زهير وكان له ضيفاً في ضيافة جعفر وهو ومع ذلك يقول :

رأيت الخبز عز لديك حتى
وما روحتنا لتذب عنا
حسبت الخبز في جو السحاب
ولكن خفت مرزئة الذباب^(١)

وقيل للجواز : رأيناك في دهليز فلان ، وبين يديك قصعة وأنت تأكل ، فمن أى شيء كانت القصعة ، وأى شيء كان فيها ؟ قال : قىء كلب في قحف خنزير .
وقيل لرجل من العرب : قد نزلت بجميع القبائل ، فكيف رأيت خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث !

ونزل عمرو بن معدى كرب برجل من بني المغيرة وهم أكثر قريش طعاماً - فأتاه بما حضر - وقد كان فيما أتاه به فضل - فقال لعمر بن الخطاب ، وهم^(٢) أخواله : لثام بن المغيرة يا أمير المؤمنين . قال : وكيف ؟ قال : نزلت بهم فما قروني غير قوس^(٣) وكعب وثور . قال عمر إن ذلك لشعبة .

وكم رأينا من الأعراب « من » نزل برب صرمه^(٤) ، فأتاه بلبن وتمر وحيس^(٥) وخبز وسمن سلاء ، فبات ليلته ثم أصبح يهجوه : كيف لم ينحرفه - وهو لا يعرفه - بعيراً من ذوده ، أو صرتمه . ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به بعيراً من مخاوفة لسانه ، لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرض للسالبة يتكفف الناس ويسألهم العلق^(٦) .

وسأل زياد عن رجل من أصحابه فقيل : إنه لملازم ، وما يغب غداء الأمير^(٧) . فقال زياد : فليغبه ، فإن ذلك مما يضر بالعيال ، فالزموه الغب ! فعابوه زياداً بذلك ، وزعموا أنه استثقل حضوره في كل يوم ، وأراد أن يزجر به غيره ، فيسقط عن نفسه ، وعن ماله مؤنة

(١) اعز من كليب بن وائل ، أى أن خبزه عزيز مثل كليب في الليالي التى يحمى فيها أرضه التى تبث البقل .

(٢) هذه الأبيات لمروان بن محمد أبو محمد ، الشاعر المعروف بأبي الشمقمق . قدم بغداد في أيام الرشيد ومعنى الأبيات ما جلبت لنا الهواء بالمروحة لتذب عنا الذباب . ولكن لنمخ الذباب أن يصيب شيئاً من الطعام .

(٣) يعنى بنى المغيرة .

(٤) تمر يعجن بالسمن واللبن الخبيص .

(٥) بقية من تمر .

(٦) صاحب إبل .

(٧) ما ينقطع عنه .

عظيمة . وإنما كان ذلك من زياد على جهة النظر للعيالات . وكما ينظر الراعي للرعية وعلى مذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد قال الحسن : تشبه زياد بعمر فأفرط . وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس . فجعلتم ذلك عتناً منه (١) .

* الثريد سيد الطعام :

وقال يوسف بن عمر لقوام موائده : اعظموا الثريدة فإنها لقمة الدرداء (٢) ، فقد يحضر طعامكم الشيخ الذى قد ذهب فيه ، والصبي الذى لم ينبت فيه ، وأطعموه ما تعرفون (٣) ، فإنه أنجع وأشفى للقرم (٤) . فقلتم : إنما أراد العجلة والراحة بسرعة الفراغ ، وأن يكيدهم بالثريد ، ويملاً صدورهم بالعراق ، وقد قال رسول الله ﷺ : « سيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة فى النساء مثل الثريد فى الطعام » . ولعظم صنعة الثريد فى عين قريش ، سمع عمرو بن عبد مناف بهاشم ، حين هشم الخبز ، واتخذ منه الثريد ، حتى غلب عليه الأسم المشتق من ذلك .

وقال عوف بن القعقاع لمولاه (٥) : اتخذ لنا طعاماً يشبع فضله أهل الموسم . قلتم (٦) : فلما رأى الخبز الرقاق والغلاظ والسواء والألوان . واستطراف الناس للون بعد اللون ، ودوام أكلهم لدوام الطرف ، وأن ذلك لو كان لوناً واحداً لكان أقل لأكلهم . قال : فهلاً فعلته طعام يد ، ولم يجعله طعام يدين ، فقلتم : اتسع (٧) ثم ضاق ، حين أراد إطعامهم الثريد والحبس وكل ما يؤكل بيد دون يدين .

والقعقاع عربى كره لمولاه أن يرغب من طعام العرب إلى طعام العجم . وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه ، وعلى أن الثروة تفختمهم (٨) وتفسدهم . وأن الذى فتح عليهم من باب الترفه أشد عليهم مما أغلق عليهم من باب فضول اللذة . وقد فعل عمر من جهة التأديب أكثر من ذلك حين دعى إلى عرس ، فرأى قدرًا صفراء ، وأخرى حمراء ، وواحدة مرة وأخرى حلوة وواحدة محمضة ، فكاذاها (٩) كلها فى قدر عظيمة ، وقال : إن العرب إذا أكلت هذا قتل بعضها بعضاً !

(٦) أى قال امثالكم من العيابين .

(٧) عوف بن القعقاع .

(٨) تنلهم .

(٩) جمعها

(١) أى خطأ من زياد .

(٢) من سقطت أسنانه ، والمراد أنها لينة .

(٣) من لحم على العظم .

(٤) شدة الرغبة فى اللحم .

(٥) المراد هنا من يقوم بخدمته .

* تفسير كلام أبي فاتك :

أما قوله : الفقى لا يكون نشالاً ، « فالنشال » عنده : الذى يتناول من القدر ، ويأكل قبل النضح ، وقبل أن تنزل القدر ، ويتنام^(١) القوم .

« والنشاف » : الذى يأخذ حرف الجرذقة^(٢) ، ويفتحه ، ثم يغمسه فى رأس القدر ، وَيُشْرِبُهُ الدسم ، يستأثر بذلك دون أصحابه .

« والمرسال » : رجلان : أحدهما إذا وضع فى فمه لقمة هريسة ، أو ثريدة ، أو حيسة ، أو أرزة أرسلها فى جوف حلقة إرسالاً . والوجه الآخر : هو الذى إذا مشى فى أشب من فسيل^(٣) . أو شجر ، قبض على رأس السعفة ، أو على رأس الغصن ، لينحتها عن وجهه ، فإذا قضى وطره ، أرسلها من يده . فهى لا محالة تصك وجه صاحبه الذى يتلوه ، لا يحفل بذلك ، ولا يعرف ما فيه .

وأما « اللكام » : فالذى فى فيه اللقمة ، ثم يلكها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها .

« والمصاص » : الذى يمص جوف قصبه العظم ، بعد أن استخراج مخه ، واستأثر به دون أصحابه .

وأما « البفاض » : فالذى إذا فرغ من غسل يده فى الطشت نفض يديه على الماء ، فنضح على أصحابه .

وأما « الدلاك » : فالذى لا يجيد تنقية يديه بالأشنان^(٤) ، ويجيد دلكتها بالمنديل ، وله أيضاً تفسير آخر ، وليس هو الذى تظنه ، وهو مليح ، وسيقع فى موضعه أن شاء الله .

« والمقور » : الذى يقور الجرذاق ويستأثر بالأوساط ويدع لأصحابه الحروف .

« والمغربيل » : الذى يأخذ وعاء الملح ، فيديره إدارة الغربال ، ليجمع أبازيره^(٥) ، يستأثر به دون أصحابه ، لا يبالي أن يدع ملحمهم بلا أوزار .

« والمحلقم » : الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه نقول لهذا : قبيح ! دع الكلام إلى وقت إمكانه !

(٢) الرغيف .

(١) يم عندهم .

(٥) توابله .

(٤) منطف كالصابون .

(٣) الغسيل صغار النحل ، والأشب : المتف .

« والمسوخ » : الذى يعظم اللقم فلا يزال فى غص ولا يزال يسينه بالماء .

« والمبلعم » : الذى أخذ حروف الرغيف^(١) ، أو يغمر ظهر التمرة^(٢) بإبهامه ليحملا له من الزبد والسمن ، ومن اللباء^(٣) واللبن ، ومن البيض التيمبرشت^(٤) أكثر .

« والمخضر » : الذى يدللك يده بالأشنان من الغمر والودك^(٥) حتى إذا أخضر وأسود من الدرن ، ذلك به شفته .

هذا تفسير ما ذكر الحارثى من كلام أبى فاتك .

فأما ما ذكره هو :

فإن « اللطاع » معروف ، وهو الذى يقطع^(٦) إصبغه ! ثم يعيدها فى مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم^(٧) وما أشبه ذلك .

« والقطاع » : الذى يعض على اللقمة ، فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ^(٨)

« والمداد » : الذى ربما عض على العصبة التى لم تنضج وهو يعدها بفيه ، ويده توترها^(٩) له ، وربما قطعها ببترة^(١٠) . فيكون انتضاح^(١١) على ثوب المؤاكل ، أو هو : الذى إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة ، والأزة فأنى على ما بين يديه ، مد ما بين أيديهم إليه .

« والدفاع » : الذى إذا وقع فى القصعة عظم ، فصار مما يليه ، نجاة بلقمة من الخبز ، حتى تصير مكانه قطعة من لحم . وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق ، دون إراغة اللحم^(١٢) .

« والمحول » : هو الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه . احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه .

* * *

(٧) السويق يصنع من القمح والشعير .

(٨) الأدام (الغموز) .

(٩) تشدها .

(١٠) مجذبة .

(١١) رشاش .

(١٢) طله .

(١) لأنها أصلح للرف .

(٢) ليوسعها .

(٣) أول ما تلده البومة من اللبن عقب الولادة .

(٤) البرشت ، وهو ما لم يتم نضجه .

(٥) ربح اللجم ودمجه .

(٦) بلحسها .

وأما « ما » ذكره عن (الضيف) و (الضيفن) ، فإن الضيفن : ضيف الضيف ، وأنشد أبو زيد :

إذا جاء ضيف جاء للضيف ضيفن

فاودى بما يقرى الضيوف الضيفان^(١)

وأما قوله : « الواغل أهون على من الراشن » . فإنه يزعم أن طفيلي الشراب ، أهون عليه من طفيلي الطعام .

وقول الناس : فلان طفيلي ، ليس من أصول كلام العرب ، ليس كالراشن واللعموظ^(٢) وأهل مكة يسمونه البرقى .

وكان بالكوفة رجل من بنى عبد الله بن غطفان ، يسمى « طفيل » كان أبعد الناس نجعة^(٣) في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك « طفيل العرائس » ، وصار ذلك نيزاً^(٤) له ، ولقباً لا يعرف بغيره ، فصاركل من كانت تلك طعمته^(٥) يقال له طفيلي . هذا من قول أبي اليقظان . ثم قال الحارثي :-

وأعجب من عجيب ، وأطرف من كل طريف ، أنكم تشيرون على بإطعام الأكلة ، ودفعي إلى الناس مالى ، وأنتم أترك لهذا منى ، فإن زعمتم أنى أكثر مالا ، وأعدُّعدة ، فليس بين حالى وحالكم فى التفاوت ، أن أطمع أبداً ، وأنتم تأكلون أبداً ، فإذا أتيتم فى أموالكم من البذل والإطعام على قدر احتمالكم ، عرفت بذلك أن الخير أردتم ، وإلى تربيتى^(٦) ذهبتم ، وإلا فإنكم إنما تحلبون حلباً لكم شطره ، بل أنتم كما قال الشاعر :

يجب الخمر من مال الندامى

ويكره أن يفارقه الفلوس

ثم قال :

والله إني لو لم أترك مؤاكلة الناس وإطعامهم « إلا » لسوء رعة على الأسوارى^(٧) لتركته ،

(١) البيت لأبي زيد الأنصارى عالم النحو واللغة والغريب الشهير (ت ١٢٥ هـ) - أى تأق الضيفان على ما يقدم لقرى الضيوف .

(٢) أى أن هذين اللفظين هما الاسمان العريان للطفيل .

(٣) لقب ذم له .

(٤) أصلحى وفالندق .

(٥) سيرته فى الأكل .

(٦) لسوء أدبه وشربه على الموالد .

وما ظنكم برجل نهش بضعة^(١) لحم ترقا^(٢) ، فبلع ضرسه وهو لا يعلم . فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب ، مولى سليمان . وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر^(٣) وانهر ، وتريد وجهه ، وغضب^(٤) ولم يسمع ، ولم يبصر . فلما رأيت ما يعتره ، وما يعترى الطعام منه ، صرت لا أذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقي^(٥) ، ولم يفجئني قط وأنا آكل تمرًا إلا استغه سفاً ، وحساه حسواً^(٦) ، وذرا به ذرواً^(٧) ولا وجده كثيراً ، إلا تناول القصعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها^(٨) ويقلمها من الأرض . ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً . ثم لا يقع غضبه^(٩) إلا على الأنصاف والأثلاث^(١٠) . ولم يفصل ثمرة قط من ثمرة . وكان صاحب جمل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق^(١١) . ولا رمى بنواة قط ، ولا تزع قمعاً ولا نقي عنه قشرًا ، ولا فشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيت قط إلا وكأنه طالب ثار وشحشحان^(١٢) صاحب طائلة^(١٣) . وكأنه عاشق مقتلم ، أو جائع مفرور^(١٤) .

والله يا أخوتي ، لو رأيت رجلاً يفسد طين الردعة^(١٥) ، ويضيع ماء البحر ، لصرفت عنه وجهي . فإذا كان أصحاب النظر ، وأهل الديانة والفلسفة ، هذه سيرتهم ، وهكذا أديبهم ، فما ظنكم بمن لا يعد ما يعدون ، ولا يبلغ من الأدب حيث يبلغون .

* الكندي :

حدثني عمرو بن نهوى قال :

كان الكندي لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار : إن في الدار امرأة بها حمل ، والوحى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة ، فإن النفس يردها السير ، فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك ، فكفارتك - إن أسقطت - غرة : عبد^(١) أو أمة ، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت .

قال : فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكان والجيران ، ما يكفيه الأيام ، وكان

- | | |
|---------------------------------|--|
| (١) قطعة . | (٩) أعراضه . |
| (٢) استصلاً للحم من فوق العظم . | (١٠) فيتركها . والأثلاث الثمرات الثلاثة . |
| (٣) تخير واضطراب . | (١١) أي يأكل بالجملة لا بالقطامي . |
| (٤) جف ريقه من شدة الجهد . | (١٢) شجاع . |
| (٥) القول أي لرخص هذه الأشياء . | (١٣) فأر . |
| (٦) فإنه يشربه . | (١٤) من القر وهو البرد . وهذا يشير الجوع . |
| (٧) أطاره عن المائدة . | (١٥) الطين ، ومعناه وما بعده أي الفساد ما لا قيمة له . |
| (٨) عانيباً . | (١٦) المراد هنا : عبد أبيض أو أمة يضاء . |

أكثرهم يفظن ويتغافل .

وكان الكندي يقول لعياله : أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع ، إنما لكل بيت منهم لون واحد ، وعندكم ألوان .

قال : وكنت أتغدى عنده يوماً ، إذ دخل عليه جار له ، وكان الجار لى صديقاً ، فلم يعرض عليه الغداء ، فاستحيت أنا منه فقلت لو أصبت معنا مما نأكل ؟ قال : قد - والله - فعلت ! قال الكندي : ما بعد الله شيء ! قال : فكفته والله - يا أبا عثمان - كنفاً ، لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه ولو أكل لشهد عليه بالكفر ، ولكان عنده قد جعل مع الله شيئاً .

قال عمرو : بينا أنا ذات يوم عنده إذ سمع صوت انقلاب جرة من الدار الأخرى ؟ فصاح : أى قصاف^(١) ! فقالت ، مجيبة له : بئر^(٢) وحياتك ! فكانت الجارية في الذكاء أكثر منه في الأستقصاء .

قال معبد : نزلنا دار الكندي أكثر من سنة ، نروج له الكراء^(٣) . ونقضى به الحوائج ، ونفى له بالشرط . قلت : قد فهمت ترويح الكراء . وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال : في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوقة^(٤) وأن لا يخرجوا عظماً ، ولا يخرجوا كساحة^(٥) وأن يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته !

وكان في ذلك يتنزل عليهم^(٦) ، فكانوا لطيبه^(٧) ، وإفراط بخله ، وحسن حديثه ، يحملون ذلك .

قال معبد : فبينما أنا كذلك ، إذ قدم ابن عمى ، ومعه ابن له ، وإذا رقعة منه قد جاءتني « وفيها » : « إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين ، احتملنا ذلك وإن كان إطعام السكان في الليلة الواحدة ، يجر علينا الطمع في الليالي الكثيرة » .

فكتب إليه : « ليس مقامها عندنا إلا شهراً أو نحوه » .

فكتب إلى : « إن دارك بثلاثين درهماً ، وأنتم ستة ، لكل رأس خمسة ، فاذ قد زدت رجلين فلا بد من زيادة خمسين ، فالدار عليك من يومك هذا بأربعين » . فكتب إليه :

- (١) اسم جارية ، و (أى) حرف نداء .
(٢) أى صوت الماء في البئر .
(٣) أى يمدح داره لكى تروج في الكراء .
(٤) ما يتبقى من علف الدابة .
(٥) كناية : والمراد أن هذه الأشياء لا ترمى لبتضع بها .
(٦) أى يفرض عليهم هذه الأشياء بالتدرج لا مرة واحدة .
(٧) لطيب نفسه .

« وما يضرك من مقامها ، وثقل أبدانها على الأرض التي تحمل الجبال ، وثقل مؤنتها على دونك ؟ فاكذب إلى بعدرك لاعرفه » . ولم أدر أني أهجم على ما هجمت ، وأنى أقع منه فيما وقعت !

فكذب إلى :

الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة . من ذلك ، سرعة إمتلاء البالوعة وما في تنقيتها من شدة المؤنة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح الطينة ، وعلى أرض البيوت المخصصة ، والضعود على الدرج الكثيرة فينتشر لذلك الطين ، وينقلع الجص^(١) ، وينكسر العتب ، مع اثناء الاجذاع^(٢) لكثرة الوطء ، وتكسرهما لفرط الثقل .

وإذا كثر الدخول والخروج ، والفتح والإغلاق والإقفال ، وجذب الأقفال ، تهشمت الأبواب ، وتقلعت الرزات .

وإذا كثر الصبيان ، وتضاعف البوش^(٣) ، نزعت مسامير الأبواب ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل جوزة^(٤) ، وحفر فيها آبار الددن^(٥) ، وهشموا بلاطها بالمداجي^(٦) . وهذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد ، وخشب الرفوف .

وإذا كثر العيال والزوار ، والضيفان والندماء ، احتيج من صب الماء ، واتخاذ الحبية^(٧) القاطرة^(٨) ، والجزار الراشحة ، إلى أضعاف ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تآكل أسفله . وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه . وتداعى بنيانه ، من قطر حب . ورشح جرة ، ومن فضل ماء البئر ، ومن سوء التدبير .

وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز ، والطبيخ ومن الوقود ، والتسخين . والنار لا تبقى ولا تذر . وإنما الدور حطب لها ، وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها ، فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة ، فكلفتهم أهلها أغلظ النفقة . وربما كان ذلك عند غاية العسرة وشدة الحال ، وربما تعدت تلك الجناية^(٩) إلى دور الجيران ، وإلى مجاورة الأبدان والأموال .

(١) الجير . (٢) جمع جذع والمراد هنا جنوع السقف .

(٣) الجماعة . (٤) شجر الجوز .

(٥) اللب والمراد الحفر التي يحفرها الصبيان ليرموا فيها الكر ونحوها .

(٦) جمع مدحاه وهي لعبة خشبية يجرها الصبي على الأرض .

(٧) جمع حب وهو الجرة . (٨) التي تقطر الماء . (٩) المقصود بها الحريق .

فلو ترك الناس حينئذ رب الدار ، وقدر بليته ، ومقدار مصيبته لكان عسى ذلك أن يكون محتملاً^(١) ، ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويكثرون من لائمته وتعنيفه .
نعم ! ثم يتخذون المطابخ في العلالى^(٢) على ظهور السطوح ، وإن كان في أرض الدار فضل ، وفي صحنها متسع ، مع ما في ذلك من الخطار بالأنفس ، والتفجير بالأموال ، وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد ، وهجومهم مع ذلك على سر مكوم ، وخبيء مستور ، من ضيف مستخف^(٣) ، ورب دار متوار ، ومن شراب مكروه ، ومن كتاب متهم^(٤) ، ومن حال جم أريد دفنه ، فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه ، ومن حالات كثيرة ، وأمور لا يجب الناس أن يعرفوا بها .

ثم لا ينصبون التناير^(٥) ، ولا يمكنون للقدور . إلا على متن السطح ، حيث ليس بينها وبين القصب والخشب إلا الطين الرقيق ، والشيء لا يبق ، هذا مع خفة المونة في إحكامها^(٦) وأمن القلوب من المتالف بسببها . فإن كنتم تقدمون على ذلك منا ومنكم^(٧) . وأنتم ذاكرون ، فهذا عجب ! وإن كنتم لم تحلفوا بما عليكم في أموالنا ، ونسيتم ما عليكم في أموالكم ، فهذا أعجب .
ثم إن كثيراً منكم يدافع بالكراء^(٨) ، ويماطل بالأداء ، حتى إذا جمعت أشهر عليه ، فر وخلى أربابها جياغاً ، يتندمون على ما كان من حسن تقاضيمهم^(٩) وإحسانهم ، فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم ، والذهاب بأقواتهم .

ويسكنها الساكن حين يسكنها ، وقد كسحناها^(١٠) وتظفناها ، لتحسن في عين المستأجر ، وليرغب فيها الناظر ، فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخراباً ، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة ! ثم لا يدع مترساً^(١١) إلا سرقه ، ولا سلماً إلا حملة ، ولا نقضاً^(١٢) إلا أخذه ، ولا برادة^(١٣) إلا مضى بها معه . ولا يدع دق الثوب ، والدق في الطاون والمنجاز^(١٤) في أرض الدار ، ويدق على الأجزاء والحواضن^(١٥) والرواشن^(١٦) ، وإن كانت الدار ممرمة^(١٧) أو بالأجر مفروشة ، وكان صاحبها

-
- (١) أى لكان الحال يمكن أن يكون محتملاً .
 - (٢) جمع عليّة وهي الحجر العالية .
 - (٣) خوف من جاكم أو نحو ذلك .
 - (٤) شكوك فيه بمعنى أن يكشف أمره .
 - (٥) الخابز .
 - (٦) أحكام التناير والقدور .
 - (٧) أى الإفساد الذى ينال منا ومنكم .
 - (٨) يماطل فيه .
 - (٩) مطالبهم بما عليهم .
 - (١٠) كسناها وقد يراد به تنظيف البئر أو المرحاض .
 - (١١) خشبة تشبه (الترياس) .
 - (١٢) واحد الانقاض : مخلفات الهدم .
 - (١٣) إناء يبرد الماء .
 - (١٤) آلة يدق بها الثوب .
 - (١٥) الأعمدة التى تحمل السقف .
 - (١٦) الرفوف أو النوافذ .
 - (١٧) القرمذ : طلاء . يريد أطلبت بالقرمذ .
 - (١٨) الطوب الأحمر .

جعل في ناحية منها صخرة . ليكون الدق عليها ولتكون واقية دونها . دعاهم التهاون والقسوة والغش والفسولة^(١) إلى أن يدقوا حيث جلسوا . وإلى ألا يحفلوا بما أفسدوا . ولم يعط قط لذلك أرسلاً^(٢) . ولا استحل صاحب الدار^(٣) ، ولا استغفر الله منه في السر . ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم . ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشراء . يذكر ما يصير إلينا مع قلته . ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته . هذا والأيام التي تنقض المريم . وتبلى الجدة ، وتفرق الجمع المجتمع . عاملة في الدور . كما تعمل في الصخور . وتأخذ في المنازل ، كما تأخذ من كل رطب ويابس . وكما تجعل الرطب يابساً . واليابس هشياً . والحشيم مضمحلأً^(٤) .

ولا نهдам المنازل غاية قريبة ، ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتع بها ، والمتنع بمراقفها ، وهو الذي أبلى جدتها و « أذهب » بجلاها ، وبه هربت وذهب عمرها لسوء تديره . فإذا قسنا الغرم عند انهدامها باعادتها بعد ابتلائها ، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وارتفقنا^(٥) به من إكراثها ، خرج على المسكن من الخسران ، بقدر ما حصل للساكن من الربح . إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتي أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة . وهذا مع سوء القضاء^(٦) ، والاحواج إلى طول الاقتضاء ، ومع بغض الساكن للمسكن ، وحب المسكن للساكن ، لأن المسكن يحب صحة بدن الساكن ، ونفاق سوقه إن كان تاجرًا . وتحرك صناعته إن كان صانعًا ، ومجة الساكن أن يشغل الله عنه المسكن كيف شاء : إن شاء شغله بعينه^(٧) ، وإن شاء بزمانه^(٨) ، وإن شاء بجبس ، وإن شاء بموت . ومدار مناه أن يشغل عنه ، ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل . إلا أنه كلما كان أشد ، كان أحب إليه ، وكان أجدر أن يأمن ، وأخلق لأن يسكن^(٩) . وعلى أنه إن فترت سوقه ، أو كسدت صناعته ، ألح في طلب التخفيف من أضل الغلة ، والمحطيطة مما حصل عليه من الأجرة^(١٠) وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته . والنفاق في صناعته ، لم ير أن يزيد قيراطاً في ضريبته^(١١) ولا أن يعجل فلساً قبل وقته . ثم إن كانت الغلة صحاحاً ، دفع أكثرها مقطعة ، وإن كانت أنصافاً وأرباعاً ، دفعها قراضة^(١٢) مفتة . ثم لا يدع مزابقاً^(١٣)

(٧) بذاته كان يصيه مرض .

(٨) بأحوال زمانه ومصاليه .

(٩) يطمئن .

(١٠) تخفيف ما استحق عليه .

(١١) المراد أجرة المسكن .

(١) النذالة .

(٢) تعويضاً .

(٣) المراد لم يعتذر عن التخريب .

(٤) ذاهباً فانياً .

(٥) انتضنا .

(٦) أداء الساكن .

(١٢) القراضة ما يسقط من المعدن في أثناء فرصه وتقطيعه . يعي عملات صغيرة .

(١٣) مطلباً بالزئبق للتريف . والمراد بالأوصاف التالية التريف أيضاً .

ولا مكحلاً ، ولا زائفاً ، ولا ديناراً بهرجاً ، إلا دسه فيه ، ودليه عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب . فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئاً : حلف بالغموس^(١) أنه ليس من دراهمه ، ولا من ماله ، ولا رآه قط ، ولا كان في ملكه ، فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وربما أحبلها ، وإم كان غلاماً خدعه ، وربما شطر به^(٢) . هذا مع الإشراف على الجيران^(٣) والتعرض للجارات ، ومع اصطیاد طيورهم ، وتعريضنا لشكايتهم . وربما استضعف عقولهم ، وطمع في فسادهم وعيبيهم . فلا يزال يضرب لهم بالاسلاف^(٤) ، ويفرهم بالشهوات ، ويفتح لهم أبواباً من النفقات ، ليعيبيهم^(٥) ، ويربح عليهم ، حتى إذا استوثق^(٦) منهم أعجلهم^(٧) ، وحرق^(٨) بهم ، حتى يتقوه ببيع بعض الدار ، أو استرهان الجميع ، ليربح - مع الذهب بالأصل - السلامة ، مع طول مقامه ، من الكراء . وربما جعله بيعاً في الظاهر ورهنًا في الباطن . فحينئذ يقتضيه دون المهلة ، ويدعيها قبل الوقت . وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لاداء الكراء ، أن يدعى أن له شيقصاً^(٩) وأن له يداً ، ليصير خصماً من الخصوم ، ومنازعة غير غاصب . وربما أخذهم ومعه امرأة يفجر بها ، فيجعل استيجار البيوت وتصفح المنازل ، علة لدخولها ، والمقام ساعة فيها . فإذا استقر في المنزل ، قضى حاجته منها ، ورد المفتاح . وربما اكرت المنزل وفيه مرمة ، فاشترى بعض ما يصلحها ، ثم يتوخى عاملاً في جيد الكسوة ، وحيراناً أصحاب آنية وآلة ، فإذا شغل العامل وغفل ، اشتمل على كل ما قدر عليه^(١٠) ، وتركهم يتسكعون . وربما استأجر إلى جنب سجن لينقب أهله إليه^(١١) ، وإلى جنب صراف لينقب عليه^(١٢) ، طلباً لطول المهلة والستر ، ولطول المدة والأمن^(١٣) . وربما جنى الساكن ما يدعو إلى هدم دار المسكن ، بأن يقتل قتيلاً ، أو يجرح شريفاً ، فيأتى السلطان الدار - وأربابها إما غيب ، وإما أيتام وإما ضعفاء - فلا يصنع شيئاً دون أن يستويها بالأرض .

وبعد فالدور ملقاة^(١٤) ، وأربابها منكوبون وملقون ، وهم أشد الناس اغتراراً بالناس ، وأبعدهم غاية في سلامة الصدور . وذلك أن من دفع داره ونقضها^(١٥) ، وساجها^(١٦) ، وأبوابها .

(١) الجين الغموس : الكاذبة ، المتعمد كذبتها . (٩) يعنى نصيباً في الدار التي يسكنها .

(٢) المراد : أخذه غلاماً له أو أفسده على صاحبه . (١٠) أخذه .

(٣) الأطلال عليهم . (١١) يتخذ ذلك وسيلة لفرار المسجونين .

(٤) ويربح عليهم . (١٢) ويسلبه .

(٥) ليعجزهم . (١٣) أي يستأجر بجوار الطراف والسجن ليقوم بذلك العمل في مهلة وستر .

(٦) تمكن . (١٤) معرضة للقاء المكروه .

(٧) طالبهم بالدفع العاجل . (١٥) المراد ما يتكون منه البناء .

(٨) شدد عليهم . (١٦) خشب هندي .

مع حديدتها وذهب سقفوها ، إلى مجهول لا يعرف ، فقد وضعها في مواضع الغرر^(١) ، وعلى أعظم الخطر . وقد صار في معنى المودع ، وصار المكترى في موضع المودع^(٢) . ثم ليست الحياة ، وسوء الولاية إلى شيء من الودائع ، أسرع منها إلى الدور . وأيضاً إن أصلح السكان حالاً من إذا وجد في الدار مرمة فوضعوا إليه النفقة ، وأن يكون ذلك محسوباً له عند الأهله^(٣) الذى يشفف في البناء ، ويزيد في الحساب ، فما ظنك بقوم هؤلاء أصلحهم ، وهم خيارهم ؟ وأنتم أيضاً ، إنما أكثرتم مستغلات غيركم ، بأكثر مما أكثرتموها منه ، فسروا فيما كسبتمكم فيهم وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منهم . وربما بنيتم في الأرض ، فإذا صار البناء بنيانكم - وإن كانت الأرض لغيركم - ادعيتم الشركة ، وجعلتموه كالإجارة ، وحتى تصيروه كتلاذ^(٤) ملى ، أو موروث سلف^(٥) .

وجرم آخر : أنكم أهلكم أصول أموالنا ، وأخريتم غلاتنا^(٦) ، وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا ومستغلاتنا ، حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ، ومن أعين العوام والحشوة^(٧) ، وحتى يدافعوكم^(٨) بكل حيلة ، وصرفوا أموالهم في كل وجه ، وحتى قال عبيد الله بن الحسن قولاً أرسله مثلاً ، وعاد علينا حجة وضرراً . وذلك أنه قال .

« غلة الدار مسكة »^(٩) ، وغلة النخل كفاف ، وإنما الغلة غلة الزرع والنسولتين^(١٠) . وإنما جر ذلك علينا لحسن اقتضائنا^(١١) ، وصبنا على سوء قضائكم^(١٢) . وأنتم تقطوعنا^(١٣) علينا ، وهى عليكم مجملة ، وتلووننا^(١٤) ، بها وهى عليكم حالة . فصارت لذلك غلات الدور - وإن كانت أكثر ثمناً ودخلاً - أقل ثمناً ، وأخبث أصلاً من سائر الغلات .

وأنتم شر علينا من الهند والروم ، ومن الترك والديلم ، إذ كنتم أحضر أذى ، وأدوم شراً : ثم كانت هذه صفتكم وحيلتكم^(١٥) ومعاملتكم ، فى شيء لا بد لكم منه ، فكيف كنتم لو امتحنتم بمالككم عنه مندوحة ، والوجوه لكم فيه معرضة^(١٦) ، وأنتم فيها بالخيار . وليس عليكم طريق

- | | |
|---|---|
| (١) الخطر . | (٩) ما يمسك الرمح . |
| (٢) أوائل الشهر العريه . | (١٠) النسوة : التى تقضى للنسل . والنسولتان : الإبل والغنم . |
| (٣) يقص . | (١١) مطالبتنا لكم . |
| (٤) قديم . | (١٢) أدالكم . |
| (٥) عن الآباء والجدود . | (١٣) أى غلة الدار . |
| (٦) يريد الدور باعتبار أنها أصل الغلة . | (١٤) غاطلون . |
| (٧) رجال الناس . | (١٥) صفتكم . |
| (٨) يمنعكم من الأضرار بأملكهم . | (١٦) ظاهرة . |

الإضرار؟ وهذا مع قولكم : إن نزول دور الكراء (١) أصوب من نزول دور الشراء ، وقلتم : لأن صاحب الشراء قد أغلق رهنه (٢) ، وأشرب نفسه (٣) ، وصار بها (٤) ممتحنًا ، وبشمنها مرتبًا ، ومن اتخذ دارًا فقد أقام كفيلاً لا يخفر (٥) ، وزعيمًا لا يغر (٦) . وإن غاب عنها ، حن إليها ، وأنكر مكانه (٧) ، وبعد مصلاه (٨) ، ونأت عنه سوقه ، وتفاوتت حوائجه ، ورأى أنه قد أخطأ في اختيارها على سواها ، وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها ، وإن من كان كذلك ، فهو عبد داره ، وخول (٩) جاره . وإن صاحب الكراء الخيار في يده ، والأمر إليه ، فكل دار هي له منتزه إن شاء ، ومتجر إن شاء ، ومسكن إن شاء . لم يحتمل فيها اليسير من الذل ، ولا القليل من الضيم ، ولا يعرف الهوان ، ولا يسأم الخسف ، ولا يحترس من الخساد ، ولا يدارى المتعللين (١٠) . وصاحب الشراء يجرع المزار ، ويسقى بكأس الغيظ ، ويكد بطلب الحوائج ، ويحتمل الذلة وإن كان ذا أنفة ، إن عفا ، عفا على كظم ، ولا يوجه ذلك عنه إلا إلى العجر (١١) ، وإن رام المكافأة (١٢) ، تعرض لأكثر مما أنكره . قال رسول الله ﷺ : « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق » .

وزعتم أن تسقط الكراء (١٣) أهون إذ كان شيئًا بعد شيء . وأن الشدائد إذا وقعت جملة غامرة للقوة (١٤) ، فأما إذا تقطع وتفرق ، فليس يكثر لها إلا من تفقدها ، وتذكرها (١٥) ، ومال الشراء يخرج جملة ، وثلمته (١٦) في المال واسعة ، وطعته نافذة . وليس كل خرق يرقع ، ولا كل خارج يرجع ، وأنه قد أمن الحرق والغرق ، وميل أسطوان (١٧) ، وانقصاص سهم واسترخاء أساس ، وسقوط سترة (١٨) وسوء جدار ، وحسد مشاكل (١٩) ، وأنه إما لا يزال في بلاء ، وإما أن يكون متوقعًا لبلاء .

وقلتم : إن كان تاجرًا ، فتصرف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح ، وتحويله في أصناف البياعات أكيس ، وإن لم يكن تاجرًا ، ففي ما وصفناه له ناه ، وفيما عددنا له زاجر . فلم تمنعكم حرمة المساكنة ، وحق المجاورة ، والحاجة إلى السكنى وموافقة المنزل ، أن أشربتم على الناس بترك

- | | |
|---------------------------------|--|
| (١) سكنها . | (١٠) الذين يأتون بالعلل والأعذار . |
| (٢) أوجه للمرتين . | (١١) لا يحمل كظم غيظه إلا على أنه عاجز . |
| (٣) أعد نفسه لدفع الرهن . | (١٢) على معروفه . (١٣) تقييده . |
| (٤) بالدار المرتنة . | (١٤) قاهرة لها . |
| (٥) لا يفي بكفالاته . | (١٥) أي بأسف عليها عند تذكرها . |
| (٦) وكيلًا لا يؤدي ما أئتم به . | (١٦) الثلمة : الخلل في الحائط وغيره . |
| (٧) منزلته . | (١٧) المفرد : إسطوانة وهي العمود . |
| (٨) المسجد الذي يصل فيه . | (١٨) السترة : ما يستر ، والمواد حائط يحجب عن النظر . |
| (٩) خادم . | (١٩) مشابه ومنافس . |

الشراء . وفي كساد الدور فساد لأثمان الدور . وجرأة للمستأجر ، واستحطاط من الغلة ، وخسران في أصل المال . وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حين حشتم الناس على الكراء ، لما في ذلك من الرخاء والثناء . فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء ، بل إنما أردتم أن تضرونا بتزهدكم في الشراء . وليس ينبغي أن يحكم على كل قوم إلا بسيلهم^(١) ، وبالذي يغلب عليهم من أعمالهم . فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية إلى تهمتكم ، وأخذ الحذر منكم . وليست لكم خصلة محمودة ، ولا خلة فيها بيننا وبينكم مرضية .

وقد أريناكم أن حكم النازلين^(٢) ، كحكم المقيمين ، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلة . ولو تغافلت لك - يا أخا أهل البصرة - عن زيادة رجلين لم أبعدهك على قدر ما رأيت منك أن تلزمني ذلك - فيما يتبين - حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف . وتصير الإقامة كالظن ، والتفريغ كالشغل^(٣) . وعلى أنى لو كنت أمسكت عن تقاضيك ، وتغافلت عن تعريفك ما عليك ، لذهب الإحسان إليك باطلاً . إذ كنت لا ترى للزيادة قدرًا . وقد قال الأول :
والكفر^(٤) محبته لنفس المنعم .

وقال الآخر :

تبدلت بالمعروف نكرًا وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

أنت تطالبني ببغض المعتزلة للشيعة^(٥) ، وبما بين أهل الكوفة والبصرة^(٦) ، وبالعدواة التي بين أسد وكندة^(٧) ، وبما في قلب الساكن من استئصال المسكن . وسيعين الله عليك . والسلام .

* * *

قال إسماعيل بن غزوان : لله در الكندي ! ما كان أحكمه ، وأحضر حجته ، وأنصح جيبه^(٨) ، وأدوم طريقته !

رأيته وقد أقبل على جماعة ما فيها إلا مفسد ، أو من يزين الفساد لأهله : من شاعر بوده أن الناس كلهم قد جاوزوا حد المسرفين ، إلى حدود المجانين . ومن صاحب تنقيح^(٩) واستشكال^(١٠)

(١) بطريقتهم في الحياة والمعاملات . (٢) من يتلون صيوا على السكان .

(٣) أى إن تساهل في نزول الزائر لا يمنع من إلزامي بذلك فيما يظهر لى . ويصير كل شيء جائزًا .

(٤) انكار المعروف .

(٥) أى تحملنى على أن أبغضك كما يبغض المعتزلة الشيعة .

(٦) أى بالفرق الذى بين علماء النحر في الكوفة والبصرة .

(٧) العدواة بين القبيلتين . (٨) هو من بسىء دائمًا إلى الناس .

(٩) وأسلم قلبه . فالمراد بالحبيب هنا القلب . (١٠) أكل حقوق الناس .

ومن ملاق متقرب ، فقال :

تسمون من منع المال من وجوع الخطأ . وحصنه خوفاً من الغيلة . وحفظه إشفافاً من الذلة .
بخيلاً ! تريدون بذلك ذمه وشينه ! وتسمون من جهل فضل الغنى . ولم يعرف ذلة الفقر وأعطى
في السرف^(١) . وتهاون بالخطأ . وابتذل النعمة . وأهان نفسه بإكرام غيره : جوداً ! تريدون
بذلك حمده ومدحه ! فاتهموا على أنفسكم من قدمكم على نفسه^(٢) . فإن من أخطأ على نفسه
فهو أجدر أن يخطيء على غيره . ومن أخطأ في ظاهر دنياه . وفيما يوجد في العين^(٣) . كان أجدر
أن يخطى في باطن دينه . وفيما يوجد بالعقل . فمدحتهم من جمع صنوف الخطأ . وذمتم من جمع
صنوف الصواب . فأحذروهم كل الحذر . ولا تأمنوهم على حال .

قال إسماعيل : وسمعت الكندي يقول :

إنما المال لمن حفظه ، وإنما الغنى لمن تمسك به . ولحفظ المال بنيت الحيطان . وعلقت
الأبواب . واتخذت الصناديق ، وعملت الأقفال . ونقشت الرسوم^(٤) والخواتيم . وتعلم الحساب
والكتاب^(٥) . فلم تتخذون هذه الوقايات دون المال ، وأنتم آفته ؟ وأنتم سوسه وقادحه^(٦) ؟ وقد
قال الأول : احرس أخاك إلا من نفسه : ولكن أحسب أنك قد أخذته في الجواسق^(٧) .
وأودعته الصخور . ولم يشعر به صديق ولا رسول ولا معين .

من لك^(٨) بأن لا تكون أشد عليه من السارق . وأعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلك قد
حصته من كل يد لا تملكه . كيف لك من أن تحصنه من اليد التي تملكه ، وهي عليه أقدر
ودواعيها أكثر ؟ وقد علمنا أن حفظ المال أشد من جمعه ؟ وهل أقى الناس إلا من أنفسهم ، ثم
ثقاتهم ؟ والمال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه . وإنفاقه هو إتلافه ! وإن حسنتموه بهذا الاسم .
وزيتموه بهذا اللقب .

وزعمتم : أنما سمينا البخل صلاحاً . والشح اقتصاداً ، كما سمي قوم الهزيمة انخيازاً^(٩) .
والبذاء عارضة^(١٠) . والعزل عن الولاية صرفاً^(١١) . والجائر على أهل الخراج مستقصياً^(١٢) .

-
- (١) أسرف في الإعطاء .
(٢) أى فاتهموا من يظلم نفسه بتقديم غيره عليه بأنه يجنى عليكم . (٨) من يضمن لك .
(٣) ما يظهر للعيان .
(٤) جمع رسم : الطابع . وتحمم به الأشياء .
(٥) الكتابة .
(٦) القادح يفعل فعل السوس .
(٧) جمع جوسق . والمراد به هنا الحصن .
(٨) يقال : انخاز كل فريق عن الآخر . أى بعد عنه .
(٩) قدرة على الكلام . يقال : هو قوى العارضة .
(١٠) عندما يراد تهوين العزل يسمى صرفاً .
(١٢) الجائر .. إلخ : الذى يكلف دافعى الضرائب أكثر مما يطبقون . وعندما يمدح يسمى مستقصياً أى يبالغ فى أخذ الحق .

بل أنتم الذين سميت السرف جودًا . والنفع أريحية . وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرمًا . قال رسول الله ﷺ : « ابدأ بمن تعمل » . وأنت تريد أن تغني عيال غيرك بأقرب عيالك وتسعد القريب بشقوة القريب . وتفضل على من لا يعدل عنك ^(١) . ومن لو أعطيته أبدًا . لاخذ أبدًا .

قد علمت ما قال صاحبنا لأخي تغلب . فإنه قال : يا أبا تغلب ! إني والله كنت أجرى ما جرى هذا الغيل ^(٢) . وأجرى وقد انقطع النيل ^(٣) . إني والله لو أعطيتك . لما وصلت إليك حتى أتجاوز من هو أحق بذلك منك . إني لو مكنت الناس من مالي . لتزعوا داري طوبة طوبة . إنه والله ما بقى معي منه إلا ما منعه الناس . ولكني أقول : والله إني لو أمكنت الناس من نفسي . لادعوا رقي . بعد سلب نعمتي .

قال إسماعيل : وسمعت يقول :

عجبت لمن قلت دراهمه كيف ينام ! ولكن لا يستوى من لم يبر سرورًا . ومن لم يبر غمًا . ثم قال :

قال رسول الله ﷺ . في وصية المرء يوم فقره وحاجته ^(٤) وقبل أن يفرغ ^(٥) : « الثالث . والثالث كثير » . فاستحسنت الفقهاء . وتمنى الصالحون أن تنقص من الثالث شيئًا . لاستكثار رسول الله ﷺ الثالث . ولقوله : « إنك إن تدع عيالك أغنياء . خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس » . ورسول الله ﷺ لم يرحم عياله إلا بفضل رحمته لنا . فكيف تأمروني أن أوثر أنفسكم على نفسي . وأقدم عيالكم على عيالي . وأن أعتقد ^(٦) الثناء بدلاً من الغنى . وأن أكثر الريح . واصطنع السراب . بدلاً من النذهب والفضة !

قال إسماعيل : وسمعت يقول لعياله وأصحابه :

اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله . وعن باكورات الفاكهة . فإن للنفس عند كل طارف نزوة . وعند كل هاجم نزوة ^(٧) وللقادح حلاوة وفرحة . وللجديد بشاشة وغرة ^(٨) ! فإنك متى رددتها ارتدت . ومتى رددتها ارتدعت . والنفس عزوف . ونفوز ألوف ! وما حملتها احتملت . وإن أهملتها فسدت . فإن تكف جميع دواعيها . وتغشم جميع خواطرها في أول ردة . صارت أقل عددًا . وأضعف قوة . فإذا أثر ذلك فيها . فعظها في تلك الباكورة . بالغلاء

من لا يصرف عنك .

(٥) يشرف على الموت .

أى أجرى العطاء على الناس ما دام يجرى الغيل أى الماء الجارى . (٦) المراد باعتقد هنا : أجمع .

(٣) من نال الشيء . (٧) كذا وجدتها بالأصل ولعلها بدوة وهو الأصح .

(٤) احتياجه إلى التزود من الدنيا إلى الآخرة بالاحسان . (٨) عذاع .

والقلة^(١) . فإن ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة . وعلّة عاملة في الطبيعة^(٢) . فإذا أجابتك في لباكورد . فسمها مثل ذلك^(٣) في أوائل كثرتها . وأضرب^(٤) نقصان الشهوة . ونقصان قوة الهلبة . بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة^(٥) . فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة عدك^(٦) إلا مثل ما لقيت منها في يومك . حتى تنقضي أيام الفاكهة . وأنت على مثل ابتداء حالك . وعلى أول مجاهدتك لشهوتك . ومتى لم تعد أيضاً الشهوة فتنة . والهوى عدواً . اغتررت بهما . وضعفت عنهما . وأثمنتها على نفسك . وهما أحضر عدو^(٧) . وشر دخيل . فأضمنوا لي التزوة الأولى . أضمن لكم تمام الصبر . وعاقبة اليسر . وثبات العز في قلوبكم . والغنى في أعقابكم ودوام تعظيم الناس لكم . فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى إلا أنك لا تزال معظماً عند من لم ينل منك قط دهماً . لكان الفضل في ذلك بيناً . والريح ظاهراً . ولو لم يكن من بركة الثروة . ومن منفعة اليسر . إلا أن رب المال الكثير . لو اتصل بملك كبير . وفي جلسائه من هو أوجب حرمة . وأقدم صحبة . وأصدق محبة . وأمتع امتاعاً . وأكثر فائدة وصواباً إلا أنه خفيف^(٨) الحال . قليل ذات اليد . ثم أراد ذلك الملك أن يقسم ماله . أو يوزع بينهم طرفاً . لجعل حظ الموسر أكثر . وإن كان في كل شيء دون أصحابه . وحظ الخف أقل . وإن كان في كل شيء فوق أصحابه .

* * *

قد ذكرنا رسالة سهل بن هارون . ومذهب الحزامي . وقصص الكندي . وأحاديث الحارثي . واحتجاجاتهم . وطرائف نجلهم . وبدائع حيلهم .

* قصة ابن أبي المؤمل :

قلت لمحمد بن أبي المؤمل :

أراك تطعم الطعام . وتتخذ^(٩) . وتنفق المال وتجد به . وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزه . ورأوا أرض خوانه^(١٠) . على أنى أرى جماجم^(١١) من

- (١) تكون الفاكهة في أول طرحها بالأسواق غالية وقليلة . (٣) عاملها مثل تلك المعاملة .
- (٢) مؤثر في الطبيعة الإنسانية .
- (٤) المراد بالضرب هنا : الخلط .
- (٥) يقول : أضف ما حدث من نقصان شهوة نفسك وغلبتها عليك إلى ما كان نتيجة لذلك من الرخص والكثرة .
- (٦) أى في عدك . (٧) أشد عدو مائل . (٨) ليس غنياً .
- (٩) تعمله وتجيد . (١٠) أى أن سطح المائدة لا يغطيه الخبز . (١١) المراد : أفراد على سبيل المجاز .